رسائل من القرآن

أدهم شرقاوي
" قس بن ساعدة "

kalemat

رسائل من القرآن
أدهم شرقاوي
دار كلمات للنشر والتوزيع

دولة الكويت / محافظة العاصمة
تلفون: ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤
تويتر: @Dar_kalemat
إنستجرام: Dar_kalemat
الموقع الإلكتروني: www.kalemat.com

kalemat
كلمات للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

ردمك:

إهداء

للمرأة اللتي أسألك ربي أن تكون
زوجتي في المستقبل

الإهـــداء

تَعزِمُ على الذَّنبِ فتمُرُّ بكَ جنازةٌ فترتدع
تُغرِيكَ قوتُكَ بظلم ضعيف فتمرضُ فتعتبر
تُفرطُ الثقةَ بالناسَ فيأتيكَ الخذلان فتتعظ
تُذنبُ فيضيقُ صدرُكَ فتسمعُ آيةً فتنشرح
تحتارُ في أمرٍ فتسمعُ حديثاً نبويّاً فتهتدي
كل هذه رسائل من الله
هـذا كتـاب بعنوان"رسـائل مـن القـرآن"
مُهدى إلى كل الذين يُؤمنون أن الله سبحانه
دومـاً يُرسـل إلينـا الرسـائل ليعيدنـا إليـه!

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾

يا اللّٰه:

إني لا أُصلّي لك كما يليق بِك،

ولا أصوم كما كان يفعلُ داود،

ولا أصبر إذا مرضتُ كما صبر أيوب،

ولا أسبّح بحمدك تسبيح يونس في بطن الحوت،

ولا آخذ ديني بقوة كيحيى،

ولا أغضُّ بصري كما غضّ يوسف كل جوارحه،

ولستُ متسامحاً لحد القول: اذهبوا فأنتم الطلقاء،

ولكني مثلهم يا اللّٰه أحبك!

﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾

إن جَهِلَ الناس فضلكَ فلا تبتئس،
يكفي أنّ الله يعلمُ من أنتَ!
لن يزيدَ شيئاً في ميزان نوح عليه السلام أننا عرفناه،
ولن ينقصَ شيء في ميزان أنبياء لم يخبرنا الله عنهم لأننا جهلناهم،
كان في جيش هارون الرشيد عشرون ألف مجاهد،
لا يكتبون أسماءهم في ديوان الجُند،
فلا يأخذون رواتبهم كي لا يعرفهم أحدٌ إلا الله!
نعى السائب بن الأقرع إلى عمر بن الخطاب شهداء المسلمين في نهاوند،
فعدَّ أسماءً من أعيان الناس وأشرافهم ثم قال:
وآخرون من أفناء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين،
فبكى عمر وقال: **وما ضرهم أن لا يعرفهم عمر، إن الله يعرفهم!**

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾

كلمـــا أذنبتَ ذنبًـا قُـــل في نفســك:
خسرتُ معركة، ولم أخسر الحـــرب!
لا تبتئس، ورمّم نفسك بوضوء وركعتين،
استغفرْ على الأصـــابــع التي أذنبـتْ،
واقرأ القرآن بنفس العين التي نظرت إلى حرام،
أنين التائبين عند الله كمنــــاجــاة الطــائعين،
وما سمى نفســه الغفور إلا لأنه يريدك أن ترجع!

﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾

لـــن ينفعكَ مــدحُ المــادحين،
إن كانوا قد مدحوكَ بما ليسَ فيكَ!
ولـــن يضركَ قـدحُ القــادحين،
إن كانوا قد ذموكَ بمــا ليسَ فيكَ!
ومهمــا بلغَ الإنسان من الصلاح فلا بد له من كـــاره،
حتى الأنبياء لم يحبهم كل النــاس!
ومهمــا بلغ الإنســان من الفجور فلا بد له من مُحبّ،
حتى فرعون والنمرود كان لديهم من يحبونهم!
قال مطرف بن عبد الله: قــال لي الإمام مالك:
ما يقول النـــاس فيَّ؟!
فقلتُ: أما الصديق فيثني عليكَ، وأما العدو فيقع فيكَ!
فقال: ما زال الناس كذلك، **ولكن نعــوذ بالله مــن اتفــاق الألسنة كلها!**
لقد استعــاذ أن يمدحــه النــاس كلّهــم فيغترَّ،
أو يذمّه الناس كلّهم فيكون فيه شيء مما قالوا!

الــمـــــــوتُ
لـيس نهـايـة
الـحكـــــايـة
إنه بدايتهـــا
فقط !

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾

إنّه اللّه!

من الذي جـاءه خـائفاً فمـا أمَّنه؟

ومن الذي جاءه منكسراً فما رمّمه؟

ومن الذي جاءه مستنجداً فما نصره؟

ومن الذي جاءه حزيناً فما أسعده؟

ومن الذي جـاءه حيرانَ فمـا دَلَّه؟

تخيَّرْ أوقات الإجابة، وأنِخْ مطاياك ببـابه،

أقْبِلْ عليه في الثلث الأخير من الليـل،

فسهام الدعـاء بعـد القيـام لا تخيب،

وثِقْ بربك فإن الأيدي الفارغة الممتدة إليه،

يستحيل أن ترجع إلا ملأى!

وقبل كلّ هذا، ليكن طعامك كلّه حلالاً،

وفي الحديث: أَطِبْ مطعمكَ تكُنْ مجابَ الدعوة!

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا ﴾

أطفِئْ بهذه الآية نار حسرتكَ على كل فرصة ضاعتْ، وعلى كل وظيفة خسرتهاً،
وعلى كل حبيب أفلتَ يدكَ في منتصف الطريق،
وعلى كل صديق حسبتَ أنَّ له وجهاً جميلاً،
فلم يكن هذا إلا قناعاً لذئب جارح!
ما أخذه الله منكَ فلحكمةٍ،
وما تركه لكَ فلرحمة،
فإنْ علمتَ الحكمة، فاشْكُرْ!
وإن جهلتها، فاصْبر!
أقدار اللهِ كلها خير وإن أوجعتكَ!

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

لم يَدُرْ في خَلَد آدم عليه السلام وحواء
أن شخصاً يمكَنُ أن يقسم باللهِ كاذباً،
ولكنَّ إبليس قد فعلها!
أمّا نصحه، فإنّه سمَّى الأشياء بغير مسمّياتها للإغراء،
فما كان اسمها إلا شجرة المعصية،
فسمّاها لهما شجرة الخُلد!
وعلى خُطى إبليس يسير الأبالسة اليوم!
الخمر مشروب روحي،
والعُري موضة،
والفحش حضارة،
والزنا انفتاح!
فلا تخدعنَّكَ الأسماء مهما تغيَّرتْ!

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

سارعوا، لأن الموتَ لا ينتظر!

غداً أتوب، غداً أضع برنامجاً للقراءة، وغداً أتبعُ حمية غذائية..

يأتي الغد، ولا ننفّذ شيئاً مما نويناه!

أما عن طول الأمل، فكلّنا نعتقد أن الموت بعيد!

بالمناسبة، هذا ما كان يعتقده الذين ماتوا منذ دقيقة!

سارعوا، لأنّ تأخّر لحظات قد يكلفك عمراً كاملاً، والشيء بالشيء يُذكر،

يقول الصُّنابحيّ: خرجنا من اليمن مهاجرين نريد النبيَّ ﷺ فلما وصلنا المدينة قيل لنا: ماتَ رسول الله ﷺ منذ خمس ليال،

تأخُّرُ خمس ليال حرمهم شرفَ الصّحبة،

فسارعوا، فربماً تأخُّرُ ساعةٍ قد يحرمكم الجنّة!

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

الموت هو الكأس الذي سيشرب منه الجميع:
المؤمن والفاجر، النبيُّ والطاغية، والجنُّ والملائكة،
وليس غير الله يبقى!
والموت ليس نهاية الحكاية،
على العكس تماماً، إنّه بدايتها فقط!
وكفى بالموت واعظاً!
كان لأبي نواس شاعر الخمرة الشهير جارٌ صالح،
وكان كثيراً ما يدعوه إلى الله وترك الخمرة،
فلما ماتَ هذا الجار، مشى أبو نواس في جنازته،
ولما وقف على قبره قال: **أنتَ اليوم أوعظُ منك حياً!**
أي أنّ كلّ الكلام الذي قلتَه لي تنصحني،
لا يساوي في الموعظة رؤيتي لك في قبرك!

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

هذه الدنيا دار زراعة لا دار حصاد،
ودار امتحـــــان لا دار جـــــزاء،
ومن امتحانات الله سبحانه لعباده أنه يُنزل بهم المصائب:
فَقْدُ الأحبةِ مصيبة،
وفَقْدُ المالِ مصيبة،
والجار السيء، والزوج الفاجر، والمدير الظالم كل هذه مصائب!
فمن صبرَ، فقد نجح في الامتحـــان!
ومن سخط، فقد رسب في الامتحان!
ولن ينجو إنسان من مصيبة، حتى الأنبياء، كانوا أشد الناس بلاءً!
يروي أهل الأخبار والسِّير،
أنَّ ذا القرنين لما وصل إلى بابل مَرضَ مرضاً شديداً،
فعــرفَ أنــه المــوت،
فخطرت لـــه أمـــه،
فأراد أن يربطَ على قلبها،
فــأرسل لها كبشاً ضخماً،

وأوصـــاه أنه إذا مـــات أن تذبحـــه،
ثم تطبخه، ثم تدعو إليه من لم تصبه مصيبة قط،
أو لم يفقد عزيزاً، فلما ماتَ نفَّذتْ وصيته،
ولكن المفـاجأة كـانت أنه لم يـأتِ أحد،
لأنه لا يوجد بيتٌ إلا وفيه فقَـد أو مصيبة،
ففهمت رسالة ابنها، وقالتْ تدعــو لـــه:
رحمـــكَ الله، بَرَرتني حيـــــاً وميـتاً!

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾

وهـــنَ عظمــــه،

واشتعلَ رأسه شيباً،

وكانت امرأته عاقراً،

لكنه كان يعرفُ أن الأسباب تحكمُ الناس،

ولا تحكم الله جلّ في عــلاه،

فرفع يديه ودعـــا: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾

فجاءته الاستجابة: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ﴾

من علَّقَ قلبه بالأسباب، تركه الله إليها!

ومن علَّقَ قلبه بالله، هيأ له الأســبــاب!

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

تمرضُ القلوب كمـا تمرضُ الأجســـام،

وعلاجُ أمراض الأجسام، أيسر من علاج أمراض القلوب!

وإنَّ من أفتك الأمراض التي تصيب القلب هو الكِبر: أن يرى الإنسـان أنـه أفضـل من غيـره، بسبب مالٍ أُعطيه، أو شهادة حصل عليها، أو وظيفة شغلها.

وهناك كِبر ليس وراءه مميزات شخصية وهذا أسوأ أنواع الكِبر!

ففي الحديث: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر!

وكان دأب الصـالحين أن يعالجـوا فـوراً أي شعور بالاستعلاء يجدونـه.

مرَّ الصحابي الجليل عبد الله بن سلام بالسوق يحملُ حزمـة حطب،

فقيل له: أليس اللهُ قد أغنـاكَ؟

قال: بلى، ولكن أردتُ أن أقمعَ الكِبر!

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾

ما أبغضَ اللهُ سبحانه شيئاً أكثر من الظلم إلا الشِرك،
ومن بُغضِ اللهِ سبحانه للظلم والظالمين،
أنّه يستجيب دعاء الكافر المظلوم، على المسلم الظالم،
ليس حُباً بالكافر، ولا بُغضاً بالمسلم،
ولكن حُبًّا للعدل، وبُغضاً للظلم!
وقد قال ابن تيمية: إن الله ينصر الدولة الكافرة العادلة، على الدولة المسلمة الظالمة!
وكتبَ رجل إلى عبد الله بن عمر يقول:
أكتُبْ إليَّ بالعلم كله!
فكتبَ إليه ابن عمر يقول: إنِ العلمَ كثير،
ولكن إن استطعتَ أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطنِ من أموالهم، كافًا لسانك عن أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم، فافعلْ، والسَّلام!

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾

فـرقٌ كبيرٌ بين الذي يفعـل المعصيـة ضعفاً وهو منكسر، وبين من يفعلها وهو مستخفٌ بها مستكبر،

الذي يُذنبُ فتنصحه فيقول لكَ:

ادعُ لي، فقد غلبتني شهوتي، ووسوس لي الشيطان، وزينتْ لي نفسي،

يختلفُ كثيراً عن الذي يُذنبُ فتنصحه فيقول لكَ:

وما المشكلة، إنها حياة واحدة استمتِعْ بها يا رجل!

الأول عودته إلى الله سهلة، لأن مشكلته في جوارحه،

والثاني عودته إلى الله صعبة، لأن مشكلته في قلبه!

وكان سُفيان بن عُيينة يقول:

من كانتْ معصيته في الشهوة فارجُ له الخير،

ومن كانت معصيته في الكِبر فاخشَ عليه،

لأنّ آدم عليه السّلام عصى مشتهياً فغُفِرَ له،

وإبليسُ عصى مستكبراً فلُعِنَ!

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾

البُغض الشديد مهلكة،
والحُبُّ الشديد مهلكة،

وقد ابتليَ يوسف عليه السّلام بهما:
فأما البغض الشديد، فكان سبباً لإلقائه في الجُبِّ،
وأما الحُبُّ الشديد، فكان سبباً لإلقائه في السجن،
نحن أحياناً لا نملك زمام قلوبنا،
ولكننا أُمرنا بالعدل سواءً أحببنا أم كرهنا،
فلا تجعلْ سيئات من تُحب حسنات لأنك تُحبه،
ولا تجعل حسنات من تكره سيئات لأنكَ تكرهه.
كُنْ عادلاً، وضَع الأشياء في أماكنها الصحيحة!
قال عبد الله بن محمد الورَّاق: جئنا إلى الإمام أحمد،
فقال لنا: من أينَ أقبلتم؟
فقلنا: من مجلس أبي كُريب،
فقال: اكتبوا عنه، فإنه شيخ صالح.
فقلنا: ولكنه يطعنُ فيكَ!
فقال: شيخٌ صالح قد بُليَ بي!

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

إنَّ أجمل نعيم الجنّة ليس في حورها،
وإن كـــان هـــذا شيئـــاً جميـــلاً!
وليس في أنهـــارهـــا،
وإن كان هذا شيئاً فاتناً!
ولكنّه في النظر إلى وجه الله تعالى!
فإذا دخلَ أهل الجنة الجنة، يقـــول الله لهـــم: تريدون شيئاً أزيدكم؟
فيقولون: ألمْ تُدخلنـا الجنة، وتبيّض وجوهنـــا، وتُنجِنا من النـار؟
فيكشف الحجاب عن وجهه الكريم، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عزَّ وجل!

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾

جـــاء أبو ليلى وعبــد الله بن مغفل إلى النبيِّ ﷺ
يوم تبوك ليعطي كل واحد منهما فرساً ليجاهد عليها،
فلما أخبرهما أنه لا يجدُ ما يعطيهما،
عــادا أدراجهمـــا وهمـــا يبكيـان.
هذا بكـاؤهما على فـوات الطـــاعة،
فكيف يا ترى كان بكاؤهما إذا اقترفا معصية؟!
إنّه حال المؤمن الحـــق،
يعزُّ عليه أن تُغلقَ الأبواب بينه وبين الله!
هذا إن كــان في طاعــة سعى إليها بكــل جوارحه،
ثـــم لسبـب مـــا حـــال الله بينـــه وبينهـــا،
فكيف لو أحسَّ بالابتعاد عن الله بسبب ذنبٍ أصابه؟!

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أكثر خُلق يحبُّه الله سبحـــانـــه من العبـد،
هو الخُلقُ الذي ارتضاه جل في علاه لنفسه.
ولأنه يُحبُّ العفو والصفح،
كان حبّه للعافين عن الناس، والصافحين عنهم أكبر من غيرهم!
رغَّـــبَ النبيُّ ﷺ بالصدقـــــــة يومــــاً،
وكان عُلبة بن زيد فقيراً، لا يجد ما يتصدق به،
فقام فقال: يا رسول الله إني تصدّقتُ بعرضي على كلّ من ظلمني!
فلما كان الغد قال النبيُّ ﷺ: أين عُلبة بن زيد؟
فقـــام وقال: هـــا أنا يا رســـول الله!
فقال له: إنّ الله قد قبلَ منك صدقتكَ!

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾

واحد من أصعبِ الامتحانات في تاريخِ البشرية،
شيخ جليل طاعن في السِّن حُرِمَ الولدَ لسنوات،
فلما رُزق ولداً وتعلَّقَ قلبه به،
جاءه الأمر بذبحه!
فما تلكأ، ولا تباطأ،
كان يعرفُ تماماً أن رؤيا الأنبياء وحي،
فأسرع لينفذ أمر الله، وإن كان بغير ما يهواه قلبه،
لهذا بالضبط كان إبراهيم عليه السَّلام أمة،
لأن الله تعالى كان في قلبه أولاً، حتى قبل نفسه!
ولكن الله سبحانه أرحم من أن يكتبَ على خليله ذبح ابنه، ولكن لما تعلقَّ قلب إبراهيم باسماعيل عليهما السَّلام، أمره بذبحه!

ثمة قلوب يغارُ اللهُ تعالى أن يكون لأحدٍ غيره حظ فيها،
فكان المطلوب ذبحُ هوى إبراهيمَ في اسماعيل!

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾

ورد في كتاب بحر الدموع لابن الجـوزي عن سعيد بن جبير أنَّه يُؤتى بالعبد يـوم القيـامة فيعُطى كتـابه،
فلا يرى فيه صلاته ولا صيامه،
ولا يرى أعمـاله الصـالحـة،
فيقول: يا رب هذا كتاب غيري!
قد كانتْ لي حسنـات وليست في هذا الكتـاب،
فيُقال له: إنَّ ربكَ لا يضلُّ ولا ينسى، ذهبَ عملكَ باغتيابك للناس!
احذرْ أن تتعبّد الله لغيركَ، أن تذهبَ حسناتك غداً لمـن كسرتَ خاطـره، ولمن أكلتَ مالـه، ولمن اعتديتَ على عرضه، ولمـن سرقـتَ وظيفتـه بالواسطـة!

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

كــان ابن القيم رحمه الله يقــول:
خير أيام العبد على الإطلاق يوم توبته إلى الله!
وفي الأثر:
إذا تاب العبدُ نادى منادٍ أن فلاناً قد اصطلحَ مـع ربه!
إنَّ الإنسان إذا كان له حبيبٌ من الناس فحدث بينهما خصام، فإنه يتفننُ في استرضائه ليعيد المياه إلى م جاريها، والله سبحانه أحقُّ أن يُسترضى!
فإذا جئتَ بعملٍ يخدشُ الحُبَّ الذي في قلبكَ لله، فتفنن في استرضائه كما لو كان محبوبكَ من الدنيا، تارةً بالصدقة، وتارة بالاستغفار والصلاة والقرآن، فإن النبيل من الناس إذا استُرضيَ رضيَ،
فكيف باللهِ وهو أرحم الراحمين؟!

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾

هذا ما قالته آسيا بنت مزاحم لزوجها فرعون عن موسى عليه السلام،

فقال لها فرعون: يكونُ لكِ، وأمّا أنا، فلا حـاجة لي به!

ويقول النبيُّ ﷺ معلقاً علَى هذه الحادثة:

والذي يُحلفُ به لو أقرَّ فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرّتْ امرأته،

لهداه الله كما هداها، ولكن الله حرَمــه ذلك!

القدر موكل بالمنطق، فتفاءلوا بالخير تجـدوه،

الذي يستلمُ وظيفةً وفي قرارة نفسه أنها نحس،

فلن تكون عليه إلا كذلك!

والذي يتزوج وفي قرارة نفسه أنها صفقة خاسرة،

فلن تكون له إلا كما قال!

أحسِنوا الظنَّ والمنطق،

فربَما أُتيَ المرءُ من قبل لسانه!

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ولو أنكَ تتبّعتَ وصف ربنا لأكثر النـــاس في القــرآن،
لوجــدتَ أنـــه يقــول فيهـــم:
لا يعلمون، لا يشكرون، لا يعقلون
بالمقابل فإنّ ربنا يقول: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾
فـــلا تركن إلى النـــاس كثيـــراً،
قدّم الذي عليكَ، وسَلِ الله الذي لكَ!
قال الإمام أحمد لحاتم الأصمّ: كيف السبيل إلى السلام من الناس؟
فقال له: تعطيهم مالكَ ولا تـــأخذ من مالهـــم،
ويؤذونكَ ولا تؤذيهـــم،
وتقضي مصالحهم ولا تكلفهم بقضاء مصالحكَ.
فقال له الإمام أحمد: إنها لصعبـــة يا حـــاتم!
فقال له: **وليتك تسلم!**

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾

إنّها النّميمة، مفرّقة الجماعات، وهادمة العلاقات،
وما أكثر النمامين!
إذا تكلّم أحدٌ بحقّ أحدٍ بالخير في غيابه،
لا تكاد تجد من يحملُ هذا الخير إليه ويبلّغه به،
وإذا تكلّم أحدٌ عن أحدٍ بسوءٍ في غيابه،
سعى كثيرون يوصلونها إليه!
وقد دأبَ الصالحون قديماً أن يُغلقوا الأبواب في وجوه النّمامين!
فعن الفضل بن عياش قال: كنتُ عند وهب بن مُنبه،
فأتاه رجل فقال له: إنّي مررتُ بفلانٍ وهو يشتمكَ،
فقال له وهب: أما وجدَ الشيطان رسولاً غيرك؟!
فلا تكونوا رُسلاً للشيطان!

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

إنَّ امتناع إبليس عن سجدةٍ أمره الله بها،
كان سبباً في طرده من رحمة الله!
ولكن لو تأمّلنا في حال إبليس،
وفي حال تارك الصلاة من المسلمين،
لظهرَ لنا العجب!
إنّ إبليس رفض السجود لآدم،
وتارك الصلاة يرفضُ السجود لرب آدم،
فسبحان الله ما أرحمه، وما أحلمه على هذه الأمة!
إنّه ينادي عباده للعودة إليه صباح مساء،
مهما عظم الجُرم، وكبرت الخطيئة، وطال الهجران!

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾

يقول يحيى بنٍ معين:
ما رأيتُ أحداً مثل أحمد بن حنبل،
صحبناه خمسين سنة،
فما افتخر علينا بشيءٍ مما كان فيه من الصلاح والخير!
وكان رحمه الله يقول: نحن قوم مساكين!
تواضَع:
المال الذي يجعلك متكبراً، فقر!
والعلم الذي يجعلك مستعلياً، جهل!
والمنصب الذي يجعلك جباراً، انحطاط!
والقوة التي تجعلك باطشاً، ضعف!
الغنى، والرفعة، والعلم تجدها عند المتواضعين!

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

نحن في هذه الدنيا نمشي وفق قـدر الله سبحـــانه،
المــرض الذي أصــابكَ لمِ يكن بإمكانك تجنبـــه،
والموت الذي نزل بحبيب لكَ كان سيقع مهما حاولتَ،
والوظيفة التي فقدتها كنُتَ ستفقدها،
ولو مسحتَ كل صباح حذاء مـــديرك!
ويا للنبيِّ ﷺ كيف يُربّتُ على القلوب:
"اعلمْ أنّ ما أصابكَ لم يكـن ليخطئك،
وما أخطــأكَ لـــم يكـن ليصيـــبك!"
ويقول الحسن البصري: إنّا إن لم نُؤجر إلا فيما نُحبّ قلَّ أجرنا، **وإن الله كريم يبتلي العبدَ وهو كاره ليعطيه الأجر!**

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

نزلَ الإمــام أحمد إلى ســوق بغـــداد،
واشترى حزمة حطب وحملها على كتفه،
فلمـــا رآه النــــاس أســرعوا إليـــه،
تركَ أهل الدكاكين دكاكينهم،
وتوقف المارَّة يسلمـــون عليه،
وكلّهم يقول له: نحن نحملُ الحطبَ عنكَ!
فاحمرَّ وجهه، ودمعتْ عيناه وقال:
نحن مساكين ولولا ستر الله لافتضحنا!
تعلَّم أحمــد بن حنبل التواضع من النبيّ ﷺ،
فقد علِمَ أنه كان يحلبُ شاته، ويخصف نعلـه،
ويخيطُ ثوبه، ويسابقُ زوجته عائشة،
ويمســـح دمـع زوجتــه صفيــة،
وعندما تقسَّم أصحابه العمل في ذبح الشاة،
فقال أحدهم أنا أذبحها، والآخر أنا أسلخها،
قـــال النبيُّ ﷺ: وأنا أجمـــعُ الحطـب!

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

الملائكة لا يكتبون فقط ما تقوله شفاهاً للناس،
وإنما يكتبون ما تقوله في مواقع التواصل أيضاً،
الكلمة الطيبة في صحيفة الحسنـات،
والكلمة الخبيثة في صحيفة السيئات،
وكل ما تكتبه هنـاك سيبقى بعد موتكَ،
فإن لم يكن لكَ في منشوراتك صدقة جارية،
فعلى الأقـل لا تتـرك خلفكَ سيئة جـارية!

﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾

تضيقُ الأمور بالإنسان حتى يظن أن لا مخرج منها،
ثـم يأتي الفــــرجُ من اللهِ سبحـــانـــه،
من كان يعتقدُ أن هاجرٍ التي كانت تركض
بين الصفا والمروة بحثاً عن شربة مــاء،
سينفجر بين قدمي ابنها ماء زمـــزم؟!
لا ليشربا هما فحسب، وإنما لتشرب الأمم حتى يوم القيامة،
هكذا يُبدّل الله من حالٍ إلى حالٍ في طرفة عين،
الشدة بتراءلا دوام لها، هكذا يقول ابن القيـــم:
كلنا مرتْ بنا لحظات قاسية حسبناها نهاية المطاف،
كل هذا أصبح اليوم مجرد ذكريات.
فلا تيأس، وثِقْ بربك، **فـــإن أعظـــم العبـــادة انتظـار الفرج!**

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

تـــأمّلها جيـــداً: لأبيـه!
اعرِفْ أين تضعُ ســرَّك،
لِيس كـــل إنسان يُؤتمـن،
وليس كل موضوعٍ يصِحُّ فيه البوح،
لا تختلط بأكملكَ بالنـاس،
واتركْ شيئاً منك لنفسكَ!

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾

كل الأسباب كانت تقفُ في وجه زكريا عليه السَّلام،
هـــو يـــريدُ ابنـــاً، وكـــل الطُـــــرق مغلـقـــــة،
وهن عظمه، واشتعلَ رأسه شيباً، وامرأته عـــاقر!
فمن أين يأتي الولدُ وقد اجتمعت كل هذه السدود؟!
ولكن زكريا عليه السلام كان يعلمُ أنَّ الله قـــادر،
فلما أفرغَ قلبه من التعلق بالأسبـاب،
ولما رآها لا شيء أمام قدرة الله سبحانه، وعلَّقَ قلبه
بربه وحده، جاءه النداء الجميل:

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾

من عاملَ الله باليقين، سخَّر الله له المعجزات!

﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

الآية نزلتْ في الإفســـــاح بالمجـــالس،
ولكنها أعمُّ من هذا معنى، وأجزل عطاءً!
كلّ من وسَّع على من اشتدتْ به، وسَّع الله عليه!
وكلّ من جبر خاطراً، جبرَ الله خاطره!
وكلّ من أسعدَ قلباً، أسعد الله قلبـــــه!
وكلّ من خفّفَ وجعاً، خفّف الله وجعـه!
وكلّ من مسحَ دمعةً، مسحَ الله دمعتـــه!
لا أحد أكرم، ولا أوفى من الله سبحانه،
وصنــائع المعروف تقي مصارع الســـوء!

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾

هكذا وحدكَ، فرداً،

بِلا المـال الذي جمعته،
ولا المنصب المرمـوق الذي شغلتــه،
ولا العائلة الكبيرة التي كنت تحتمي بها،
أنتَ وأعمالك واللّه!

عندما نام السلطان سليمان القانوني على فراش الموت، قال لمــن حوله: إذا متُّ فـأخرجوا يديَّ من التـابوت، ليعلم الناس أنّه حتى السلطان قد خرجَ منها فارغ اليدين!

لا بأس أن يعمل المرءُ لدنياه،
ولكن دون أن ينسى آخـرته!
ولا بأس أن يجعل بيته جميلاً،
ولكـن دون أن ينسى قبـره!

﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

كان أحد الصالحين أقرع الرأس، أبرص البدن،
أعمى العينين، مشلـــــول القــدميــن واليــدين،
وكان يقول: الحمد للهِ الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه،
فمرَّ به رجل وقال له: أعمى، وأبرص، وأقرع، ومشلول، فممَ عافاك؟!
فقال له: ويحكَ يا رجل، لقد جعلَ ليَ لساناً ذاكراً،
وقلبــــاً شـــاكراً، وجسـداً على البـــلاء صابراً!
للأسف، يعتقدُ الناس أن المال هو فقط النعمة التي تستحق الشكر،
وينسون الأعين التي ترى، وفي الدنيـــا عميان،
والأيدي التي تأخذ وتعطي، وفي الدنيا مشلولون،
والأرجـــل التي تمشي، وفي الدنيـــا مقعـدون،
فيا ربِّ لكَ الحمد!

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

أي تتبدّل أحوالكم من حالٍ إلى حالٍ،
وما بعد الضيق إلا الفـــرج،
وما بعد المرض إلا الصحة،
وما بعد الحزن إلا الفـــرح،
وما بعد الافتراق إلا اللقيا!
هذه الدنيا لا تلبث على حال أبداً،
يتقلبُ فيها الناس بين الفقر والغنى، والصحة والمرض،
والضيق والفرج، والوداع واللقـاء،
والسعيد من كان مع اللهِ في كل حالٍ!

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ ﴾

الذي تربّى في بيتِ نبيّ غـــرقَ بالطـوفـــان،
والذي تربّى في بيتِ فرعون شَقّ البحر بعصاه،
ليـــس المهـــم أيـن تعيـــش بل كيـــف؟
ليس المهـم البـدايات بـل النهايـات!

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾

ليس المهم أين تكون، وإنما كيف تكون!
المعـدن الأصيــل لا تغيـره الأيــام،
فلا يزيده الغنى والمنصب والشهادات إلا تواضعاً!
والخبيث خبيث، سواء أكان ماسح أحذية أو وزيراً!
في السجن قالوا ليوسف عليه السلام: "إنا نراك من المحسنين"
وهو على كرسي الملك قالوا له: "إنا نراك من المحسنين"
النبيل يبقى نبيلاً حيثما كان!

﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾

هذه سارة، وقد بشرتها الملائكة بإسحــاق!
ضربتْ بيديها على وجهها من الذهـــــول،
عجوز، وعقيم!
فالتي كانت تلد في شبابها، لن تلد في كبرها
فكيف بهــا هي التي لم تلــد في شبابهــا؟!
لعلكَ تنظرُ الآن في وضعك وحـــالكَ،
فتقول: يا رب كيف تتحققُ الأمنيــات؟
ولكن ثقْ تماماً أن اللّٰه سبحانه إذا أراد بكَ
الخيرَ، حمله لكَ ولـو على ظهـر عدوكَ!

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

إنَّ الله لم يُعطِ العاصي مالاً عن ضعف منه سبحانه،
ولم يحـرم الطَـائع المـال عن فقرٍ منّه سبحــانه،
ولكنهـا دار امتحــان!
والله سبحانه لا يعطي إلا لحكمة، ولا يمنعُ إلا لحكمة،
فما كان لكَ سيصـلكَ،
ولو وقفَ العالم كله يريدُ أن يمنعه عنك!
وما لم يكنِ لك لن تناله،
ولو ساندكَ العالمُ كله للحصول عليه!
رُفعت الأقلام وجفّتْ الصحف!

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾

ليس قـوة يـد وبـــدن،

وإنما قوة قلب وعقيدة،

وأنتَ أيضاً: خُذ الكتاب بقوةٍ!

كُن راسخاً في إيمانك ثابتاً في عقيدتـــك.

لو مالَ الناس كلهـم، فاثبُتْ!

ولو انتكسَ الناس كلهـم، فلا تتركْ صلاحكَ!

إنّ هـــذا الدين منتصرٌ بـــك، أو بـدونـــكَ!

وحدكَ الذي ستخسر إن مضتْ القافلة ولم تكن فيها!

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

الدنيا بالمال أيسر،
وبـالأولاد أحــلـى،
ولكن تأمّل دقة التعبير في الآية: زينة،
وليس قيمة!
الإنسان بما يعرفُ لا بما يملكُ،
وبما في قلبه لا بما في جيبـه،
بحنانه لا بسلطانه،
وبرقته لا بقسوتـه،
لا تكُنْ كالذين حسـدوا قـارون على مالـه،
فلما خسف به وبداره الأرض عرفوا الحقيقة.
اعرفها أنتَ مبكراً!

﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ ﴾

ألطـــاف الله تجـــري ونـحن لا نـــدري،
وفي كل شر يقع بنا، خير سنكتشفه لاحقا!
السفينة في ســـورة الكهـف لو لــم تُثقـب،
لأخذها الملكُ غصباً، وخسر الفقراء مصدر رزقهم!
والغلام لو لم يُقتــل، لشقيَ وأشقى والديـــه!
حتى الجـــدار، لو لم يُقَم لضاع حق اليتيمين!
ثقوا بالله، **فربُّ الخير لا يأتي إلا بخير!**

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

يُدبِّر الأمر، فلِمَ تقلق؟!
استنِدْ بيقينك على الله سبحـــانــه!
المرَض الذي نزلَ بكَ، شفاؤه عنــده.
والدَّين الذي أرهقكَ، سداده عنـــده.
والهمُّ الذي أثقـــلكَ، زوالــه عنــده.
والضيق الذي كدَّركَ، انفراجه عنده.
لُذْ ببابه دوماً!
إنّ الكريم من الناس، يقضي حوائج الناس!
فكيف بالله؟!

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾

الأوَّاب في اللُّغة صيغــة مبــالغــة،
وفي المعجم: كثير التوبة إلى الله،
وسياق الآية يقول:
لو لم يكن كثير الذنوب، ما كان كثير التوبة!
إياكَ أن تستكبر ذنبكَ أمـــام رحمــة الله،
وإياك بالمقابل أن تستصغره أمام عقــابه،
كُنْ بين الرجاء والخوف:
رجاء من رحمته سبحانه، وخوف من عقابه!
وإياكَ أن يجعلك الشيطان تخجل من ذنبك فلا ترجع إلى ربك،
فإنه ما سمّى نفسه الغفور، إلا لأننا نذنب ويتوب علينا!

فــإذا أذنبتَ في اليــوم ألفَ مرة
تُــب إلى الله ألـــف مـــرة!

من علَّقَ قلبـــه
بالأسبابِ تركه
اللّه إليها..
ومن علَّقِ قلبه
باللّه هيَّأ لـــه
الأسباب.

﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾

كان زكريا عليه السلام عند الناس نجاراً،
ولكنــــه كـــان عنــد الله نبياً مرســـلاً،
قيمتــك ليست في وظيفتك ولا شهادتــك،
قيمتـــك بما أنتَ عند الله!
وفي الحديث: ما من نبيٍّ إلا ورعى الغنـم.
فقالوا: وأنتَ يا رسول الله؟
قال: وأنا كنت أرعاها على قراريط/ أُجرة لقريش.
فـلا تخجـــــل بوظيفتـك ولا منصـبك.
ما دمتَ تأكل لقمتكَ بالحلال، فافخر بنفسك!

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾

الآية نزلتْ في الصحابة في غزوة تبوك.
الغزوة الأصعب بين غزوات النبي ﷺ ،
فهي الغزوة الأبعد مسافةً،
والطقس يومها صيف، والحر شديد، والصحراء لظى،
وسُمي جيشها بجيش العسرة، لأنه لم يكن هناك مال
لتجهيز الجيش، ومع ذلك سمى الله تعالى كل هذه
المشقة: ساعة العسرة!
الوقت يمضي سريعاً،
والأيام تتبدل كأنها الريح،
ولا يبقى من الطاعة إلا أجرها،
ولا يبقى من المعصية إلا وزرها،
وقد كانوا يتواصون في الشدائد:
إنما هي أيام تمضي، والموعد الجنّة!

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

يقول سعيد بن جُبير:

الحياة الطيبة هي أن لا يحوجكَ الله إلى الناس!

وهذا قــول جميل، ولكن في الآية مـزيـداً:
فالحياة الطيبة ليست أن لا تمرض ولا تفتقر،
وليست في أن تكون صاحب جاه ومنصب،
وإنما أن ترضى بقضاء الله مهما كان،
فإن السخط على قَدَرِ الله ضنكٌ وتعب ومشقة!
ومتى وهبكَ الله الرضى على كل أقداره،
فجعلكَ حامداً في رخائك، صابراً في شدتك،
فقد أحياكَ حياةً طيبة!

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

في أحسن تقويم لا تعني وسيماً وأشقر!
وإنما في جسد هو معجزة في وظـائفه:
الجَمال كالمال أرزاق، وزّعها اللّه لحكمة بين خلقه!
كان لقمان الحكيم عبداً من النُّوبة،
وكان بلال بن رباح أسود البشـرة،
فما ضرَّهما ذلك شيئاً!
وما نفعُ الوسامة والجمال في قلوب فاجرة ستأكلها النار!
فلا تسخـر من شكـل أحـد وهيئتـه،
أنـتَ لـم تخـلقْ نفسـكَ،
فإن لم تحترم الخلقَ، فتأدّب مع الخالق!
لا تجعل أحـداً يكره شكلـه وهيئتـه،
لأنك تريدُ أن تضحك وتمـزح وتتندر!
اللسان أحياناً أمضى من ضربة السيف!

﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾

هكذا خُلقنا لا نُطيق الانتظار!

حتى نحن الكبار، نشبه أولئك الأطفال الذيـن
إذا وعدناهم بشيءٍ سألـونا كلّ دقيقة عنـــه!
أدِّبوا هــذه العجلة بالصبر،
ثمة أمور كثيرة لا ينالها العجول بسبب عجلته،
يروي الذَّهبي في سير أعلام النبلاء عن جعفر بن أبي عثمان قال:

كنا عند يحيى بن معين، فجاءه رجل مستعجل،
فقال له: يا أبا زكريا حدثني بشيء أذكركَ بـه،
فقال له: اذكرني أنكَ سألتني أن أُحدثكَ فلم أفعل!
يريدُ أن يقــول له أن العلــم لا يُعطى لعجـــــول!

﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

إنه شيخ المرسلين نوح عليه السلام،
ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا يدعو قومه،
ولم يؤمنْ معه إلا قليل،
نحن مسؤولون عن السعي، لا عن النتيجة!
عن الطريق، التي مشينا بها لا عن الوصول!
وفي الحديث: يأتي النبيُّ وليس معه أحد!
هذا لأنّ كلّ نبيٍّ يأتي مع قومه يوم القيامة،
وهناك أنبياء لم يؤمن بهم أحد!
يقول الإمام الأوزاعي:
ماتَ عطاء بن أبي رباح يوم ماتَ وهو أعلم أهل الأرض،
وما كان يشهدُ مجلسه إلا تسعة!

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾

مهما كنتَ على صواب، والآخر على خطــأ،
ومهما كنتَ على الهدى، والآخر على ضلال،

الأخلاق تأتي أولاً!

دخلَ لصٌّ بيتَ مالك بن دينار، فلم يجد شيئاً يأخذه!
فناداه مالك: لــم تجد شيئاً من الدنيــا تأخـــذه،
فهل لكَ بشيءٍ من الآخـــرة؟!
فقـــال اللـــص: نعـــم!
فقالَ له: توضأ، وصلِّ ركعتين،
ففعلَ، ثم جلسَ قليلاً، وقام وذهبَ إلى المسجد،
فلما سُئل مالك عن الرجل قال:
جاء ليسرقنا، فسرقنـــــاه!

﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾

أحيـانـاً عليـكَ أن تلتزمَ الصـمـتَ،
لأنَّ بعض المشاكل يفاقمها الكلام!

تظاهرْ بأنكَ لا تـعرفْ،
ومثِّلْ بأنـكَ لـم تـرَ،
وتصرَّف بأنكَ لم تسمعْ،
وتعاطَ كأنكَ لم تفهـم،

دخلَ على الخليفة المهدي رجل في يده نعـل، وقال له: يا أمير المؤمنين هذه نعل النبيِّ ﷺ، فأخذها المهديُّ، وقبَّلها، وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم، فلما خرجَ من عنده قال المهدي لجلسائه: أعلم أن النبيَّ ﷺ لم يرَ هذه النعل ولم يلبسها، ولكن لو كذّبناه لقال للناس أتيتُ الخليفة بنعل النبيِّ ﷺ، فردَّها!

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ
وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾

الشماتة بمصائب الآخرين من صفات المنافقين،
فأحبّوا الخيرَ للناس كأنّه لكم،
واكرهوا الأذى لهم كأنّه لكم!
قال سرى السّقطي وكان عالم أهل زمانه:
منذُ ثلاثين سنة وأنا أستغفرُ من قولي الحمدُ للهِ،
فقيل له: وكيفَ ذلك؟
فقال: وقعَ ببغداد حريق، فخرجتُ اتفقدُ دكاني!
فلقيني رجل فقال: نجا دكانك!
فقلتُ: الحمد لله!
فأنا نادمٌ من ذلكَ الوقت حيث أردتُ الخير لنفسي من دون الناس!

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

الدنيا متاعٌ زائل هذه حقيقتها لمن وعى!

ليستْ صديقةً لأحد وتتخلى نهاية المطاف عن الجميع والعاقل من تركَ قبل أن يُتركَ!

عندما جاء عمر بن الخطاب إلى الشام قال لأبي عبيدة:

اذهبْ بنـــا إلى منزلك،

فقال له: وما تصنعُ عندي؟ ما تريدُ إلا أن تبكي عليَّ!

فلما دخلَ عليه قال له: أين متاعك؟ إني لا أرى عندكَ شيئاً،

فقال أبو عبيدة: ليس عندي إلا ما ترى،

فقـال لـه: أعنـدكَ طعام؟

فقـام أبو عبيدة إلى وعاء، وأخرج منه كســرات خبز، فبكى عمر وقال له: كلنا غيّرتنا الدنيــا إلا أنتَ يا أبــاً عبيـدة، هذا وأبو عبيدة يومها أميرُ المسلمين على الشام!

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾

احذرْ من دعوة أولئك الذين ليس لهم إلا الله:

العامل المسكين الذي أكلتَ أجره،

والزوجة الضعيفة التي أهنتهـــا،

والأخ الذي غصبتــه ميــراثـــه،

والجار الذي اعتديتَ على أرضـه،

فلربما نمتَ أنتَ ليلتــكَ،

وقام هو وتوضأ، فدعـا بدعاء نوح عليه السـلام هـــذا، فتلقى الله سبحانه دعوةَ المظلوم، وأصدر أمره لملائكته أن ينصروا عبده،

ســأل جعفر البرمكي أبـاه وهمـا في السجـــن: يا أبتِ بعد الأمر والنهي والأموال صـرنا إلى هذا، فقال له أبوه: يا بُني، دعوة مظلوم غفلنا عنها ولم يغفل الله عنها!

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

ليس عن عبث كانتْ الكلمة الطيبة صدقة!

ولكن لأنّها تفتحُ الطُرق، وترمّم الأرواح، وتجبر الخواطر!

"من ينشط منكم لجمـــع الصحيح"

قالها إسحاق بن راهويه في مجلسه،

فوقعتْ في قلب البخاري فجمعَ لنا الصحيح!

"إنَّ خطّكَ يُشبه خطَّ المحــدثيـن"

قالهــا البرزالي لتلميـــذه الذهبي،

فحببَ الله إليه بها علـم الحـديث!

"أين أنتَ من الفقه يا شــــافعـي؟!"

قالها له كاتب مصعب الزبيري بعد أن كان الشافعي مولعاً بالشعر، فصار بها الشافعي الذي نعرفه ويقول عنه الإمام أحمد:

كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس!

﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ﴾

﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾

لا تستــهِنْ بالكلمـــــات أبــداً،
كلمة واحدة قد تقودك إلى الجنة،
وأخرى قـــد تقـــودك إلى النــار!
قال النبيُّ ﷺ لمعاذ وهو يشير إلى لسانه:
"أمسكْ علَيكَ هذا!"
فقال له معاذ: أَوَمُؤاخذون نحن بما نقول يا رسول الله؟!
فقال له: ثكلتكَ أمكَ يا معاذ،
وهل يكبُّ الناس على وجوههم في النار
إلا حصائد ألسنتهم!

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

لا تتحدثْ عن كلّ ما أعطاكَ الله إيّاه أمام الجميع،
بعض النّفوس مريضة،
وبعض الأعين مسمومة،
حصّنْ عطايا الله لك بالحمد والكتمان،
أو على الأقل لا تَبُحْ بها للجميع،
فالحاسد، لا يرضيه شيءٌ إلا زوال النعمة!
وقديماً حسدَ الأخوة أخاهم على حلم رآه في منامه،
أتريدُ أنتَ أن تسلمَ من الناس
على وظيفة، وزوجة، ومالٍ، ومنصب؟!

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾

كلّ مكـان عبـدتَ الله فيه، سيشهد لكَ!
كلّ مكانٍ عصيتَ الله فيـه، سيشهدُ عليكَ!
فأكثِرْ شهودكَ!
اجعلْ لكَ في كلّ مكان تأتيه سجدة،
وفي كـلّ مدينة تزورهـا صدقـة،
وفي كلّ قرية تقدمُ عليها خلوة إلى المسجد!
هذه الأرضُ ليست تراباً وحصىً فحسب،
هي شاهد رئيس في أعدل محكمة في الكون،
محكمة الله جلَّ في علاه!

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾

تأمّلها جيداً: برحمـــــة منــــا!

فإذا جاءكَ الفَرجُ بعد الضيق، تذكّرْ أنه برحمة الله!

وإذا جاءك الشفاء بعد المرض،

فليس بالدواء والطبيب، وإنمـــا برحمــــــة الله!

وإذا جاءتكِ الوظيفة بعد بطالة،

فليست بشهادتكِ وقدراتكِ، وإنما برحمـــة الله!

وإذا جاءك الولدُ بعد انقطــــاع ويــأس،

فليس بالعلاج وقوتك، وإنما برحمة الله!

كل هذه أسباب لا تضرُّ ولا تنفع، حتى يأذن الله!

فكم من مريضٍ تداوى ولم يشفَ،

وكم من حاملٍ شهادة لم يتوظّف،

وكــم مــن متــزوج لــمْ يُنجـبْ،

كلّ خيرٍ أنتَ فيهِ برحمة الله، فاعترِفْ بالفضل لصاحبِ الفضل!

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾

كُنْ مع الله، يكُـنْ معــكَ!
لا تسأل متى، وكيف، وأين؟
إنَّ الذي ألانَ الحديد لداود عليه السلام،
لن يصعبَ عليه أن يلين لكَ قلوب الناس،
والذي جعل الجبال والطيور تردد تسبيحه وتلاوته،
لن يصعب عليه أن يجعـلك مقبولاً عند النـاس،
أنتَ تتعبّدُ بالطّاعة وهو واعـدٌ بالتوفيق!
فقدِّم لله ما يُحب، يُعطِكَ ما تُحبّ!

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

ثمة أمور يجب تنضج قبل أن تحصل عليها،
لأنّك لو أخذتهـــا باكراً، لضيّعتهـا بـاكراً،
إنَّ الـــذي نصـــر المسلميـــن في بـدر،
كان قادراً على أن ينصرهم في مكة وهم مستضعفون!
ولكنّه أخَّر النصر ليربّيهم أولاً،
لينضجـــوا، ويعرفوا أنّ الرّســالة التي يحملونهــــا،
أكبر بكثير من قــريش،
إنّها رســالة التوحيد التي خُلق الكــون كلّه لأجلهــــا!
يا عزيزي: لو كَسرنا البيضة قبل اكتمال نموّ الفرخ فيها، لماتَ!
ولو حصدنا القمح باكراً، لما صار خبزاً!
والطعام الذي لا يأخذ حظّه من النّار، يخرجُ نيئاً لا يُؤكل!
لكلّ شيءٍ أوان، فلا تستعجلْ!

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾

سُئِل حكيم: هــل هنــاك أقبَحُ من البخــل؟
فقال: نعم، المحسن إذا تحدَّثَ عن إحسانه!
ضَعْ الله نُصبَ عينيــكَ في كلّ خيرٍ تفعـله،
لا تنتظِرْ جــزاءً من أحـد،
ولا تبحث عن التّصفيق والمديـــح،
كلّ عملٍ أردتَ به النّاس فهو للنّاس،
وكلّ عمــلٍ أردتَ بــه الله فهـو لله،
مخيفة جداً مقــولةُ ابن القيم:
إذا لم تُخلص، فلا تتعبْ!

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾

فكيـف بهـذا الخـير الـذي في قلبـــكَ؟
وكيف بهـــذا الحُبّ الـذي تحمله للنّـــاس؟
وكيف بفرحك بنجاح الجميع كأنه نجاحكَ؟
وكيف بألمك لألـم النـاس كـأنّه ألمـــكَ؟
يا صاحبي، إنَّ اللّه لا ينظرُ إلينا من فوق،
وإنّمـــا ينظـرُ إلينـــا من الـداخـــل،
فأصلحْ موضعَ نظرِ المَـــلك!
"ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلُحت صلُح الجسدُ كلّه،
وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلّه،
ألا وهي القلب!"

﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾

هذه أُمنية أهــل القبور:

"يا ليتني قدمتُ لحياتي"

وليس يا ليتني قدمتُ في حيــاتي!

لأنّ حياتنا الحقيقية لم تبدأ بعد،

حياتنا تبدأ حين نوضَع في قبورنا:

فإمّا روضة منِ رياض الجنّة وإمّا حفرة من حفر النار!

فإذا كان العملُ الصّالح أُمنية أهل القبور،

فــأنتَ في الأُمنيــــة الآن، فــــاعمــل!

وقف الحسن البصري يوماً على قبر يُدفن فيه ميت،

فقال لمن حوله: ما تراه يتمنى الآن؟

فقالوا: أن يرجــعَ، فيعـمل صالحــاً.

فقال لهم: أنتم الآن في الأمنية، فاعملوا!

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾

لا تعشْ قلـقـــاً على المستقبـــل،
عِشْ ساعياً في رضى الله ولا تقلقْ،
فالمستقبل بيده وحده!
رزقكَ لن يأخذه غيركَ،
ولكن عبادتكَ لن يقوم بها غيـــركَ،
إنَّ الله سبحانه قد تكفَّل لكَ بالرزق،
وطلبَ منكَ العمل!
فلا تنشغل بما تكفَّل لكَ به،
وتنسَ الذي طـالبـــكَ به!

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾

يبتليكَ بالفقـد لتعـرفَ
أن ليسِ غيـره يبقى لكَ،
ويبتليكَ بالخذلان لتعرف
أنـه أمـانكَ الوحيـد،
ويبتليكَ بالتّعثّر لتعـرف
أنـه لا يُقيمـك غيـره!
المصـائب ليستْ دوماً للانتقـام،
كثيرٌ منها للتّأديب، وتصحيح الطّريق!

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

اللّه لا يضعُ ثماراً على غصنٍ لا يستطيع حملها،

كلّ مسؤوليـــة ألقــاها على عاتقك، أنتَ لهـــا!

كلّ معـركـــة ألقــاكَ في غمــارها، أنتَ لهـــا!

كلّ ثغرٍ كلّفكَ حراستــه، فهذا ثغرك، فــالزَمْهُ!

كلّ همٍ وغـمٍ وحــزنٍ أصـــابك،

أنتَ بحجمهِ، وقـادرٌ على حمله!

المصاعب والمصائب تُقويك،

فلا تتركْ موقعكَ!

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ
لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

ذكرَ الله في الرخــاء،
فذكـره في الشـــدة!
ولا أحد أوفى من الله!
ادَّخِرْ لكَ عند الله خبايا صالحــة،
حَتى إذا وقعـــتَ في الشِّـــــدة،
ذكرَ الله لك عبادتكَ في الرخاء، فأنجاكَ!

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

اِصْبِرْ يـا صـاحبي،
اِلزم مصحفكَ، وحافظْ على صلاتك،
اِحتسبْ وجعـــكَ،
فَما هَو إلا قدر الله،
ومــا الدّنيــا إلا امتحـــان سينتهي،
ومحطّة عبور سنجتازها نهاية المطاف،
وكُنْ على يقين،
أننا سنجلسُ يوماً في ظلّ شجرة في الجنة،
نضحـــــكُ على كـــلّ هــــراءِ الدّنيـــا!

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾

هذا لأنّ صلاة الفجر شاقّة،
والصّيـــام مُتعـــب،
والحـــــجّ مُضـــن،
وكلمة الحقّ خطرةٌ،
والشّهوة مستـــعرة،
والمـــال عزيـــز،
والعفة تحتاجُ إلى مجـــاهـدة،
والأمانة أصعبُ من الخيانـــة،
وغضُّ البصر بخلاف الهوى،
والنفـــسُ أمّـــارة بالســـوء،
وطريـق الجنّـة شائكـةٌ،
بينما طريق النار مُعبدة!

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾

حياةٌ حافلة:

علمٌ، وظيفة، وزوجة، وأولاد، وجمعُ مال،

ثمّ مـــاذا؟

ثمّ يهيلون علينـــا التّراب، ويمضـــون..

وتبدأ الرحلة:

إمّـــا إلى الجنـــة، وإمّـــا إلى النـــار!

الدّنيا ليستْ إلاّ دابةً للعبور نحو الآخرة، فاخترْ دابتكَ!

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

تُؤذيه الكلمـــة الجـارحــة،
ويضيقُ صدره بالقول السّيّء،
وهو نبيٌّ!
فما بالك بمن هم دونه،
فسلاماً، ثم سلاماً، ثم سلاماً،
على الذين يختارون كلماتهـم،
كمـا يختـــارون ملابسهـــم،
لأنّهم يعرفون أنّ الكلام أناقة أيضاً!

أما السبب: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾
وأما النتيجة: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾

إذا ضاقتْ بكَ الدنيا، فتصدَّقْ من مالكَ وقلبكَ، أطعمْ جائعاً، ودُلَّ حيراناً، وأقِمْ متعثراً، واقضِ ديناً.
الصَّدقات ليست أموالاً فقط،
جبرُ الخواطرِ صدقة،
وإزالةُ دمعة صدقة،
والمسحُ على قلْب مكسور صدقة،
ثم إنّه لا شيء أجلبُ للهموم من المعاصي،
ولا شيء أريَحُ للقلب من الطاعات،
فإذا ضاقَ صدرك، وانشغلَ قلبك،
فراجِعْ عباداتك!

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

صحيح أنّ العتاب مجلاةٌ للقلوب، وتطهيرٌ للجروح ، وتنظيفُ الجرح قبل خياطته أسرعُ تماثلاً للشفـــاء،
ولكنْ، ليستْ كـلّ الظروف مؤاتية للعتـــاب،
أحياناً عليكَ أن تتظاهر أنّكَ لم تفهم رغم أنّك فهمت كل شيء!
وأن تتظـــاهـر بأنّك لم ترَ، رغم أنّكَ رأيتَ كل شيء!
تغافَلْ أحيـــاناً، ولو بدا الأمر لكَ خســـارة لحظيّـــةً!
النبلاء يعرفون: **أنَّ كسب النّاس أولى من كسب المواقف،**
ولم يُسرّها يوسف عليه السلام في نفسه إلاّ لأنّ التغاضي من شيم الكرام!
كان الإمام أحمد يقول: تسعة أعشار العافية في التغافل، ويقول الإمام الشافعي: الكيِّس العاقل هو الفطن المُتغابي،
ويقول أكثم بن صيفي: من تشدَّدَ فرَّقَ، ومن تراخى تألَّفَ، والسرور في التغافل،
ويقول ابن القيم: من المروءة التغافل عن عثرات الناس!

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾

سيقـولون فيـكَ ما ليسَ فيك، فلا تلتفتْ!

وتعزَّ بمن سبقـوكَ، وهــم خيــر منكَ!

قالوا عن النبيِّ ﷺ ساحرٌ، ومجنون، وكذَّاب!

اتهمــوا يوســف عليه الســلام بالسـرقــة!

واتهموا مــريم البتــول بالـزنا!

ضَعْ هذه الحقيقة نصب عينيك:

لا نجاة من ألسُنِ الناس مهما بلغتَ من الصّلاح!

وفي حلية الأولياء:

قال موسى عليه السلام لربه: يا ربُّ أسألكَ أن لا يذكرني أحدٌ إلا بخير.

فقال له الله: يا موسى ذلكَ شيءٌ لم أجعله لنفسي أفأجعله لكَ؟

قال الناس أنَّ لله تعالى زوجةً وولداً،

أفتــريدُ أن تسـلَمَ منهـم أنـــت؟!

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾

إذا نزلتْ بكَ الهموم والهزائم، فراجِعْ نفسكَ!

فقد يبتليكَ اللّٰه تعالى،

ليصلح فيكَ شيئاً لا يصلحه إلا الابتلاء!

يروي أهل الأخبار والسِّير،

أن السَّماء أمسكتْ عن المطر في زمن سليمان عليه السلام، فخرج بالناس لصلاة الاستسقاء،

فرأى نملةً رافعة يديْها إلى السّماء تقول:

اللّهم إنّكَ تعلمُ أنّ البلاء لا ينزل إلا بذنب،

ولا يُرفع إلا بتوبة،

ونحن خلقٌ من خلقك،

وعبادٌ من عبيدك،

فلا تُهلكنا بذنوب بني آدم!

فقال سليمان عليه السَّلام للنّاس: ارجعوا فقد استجيب لكم بدعاء هذه النملة!

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾

فإن قالوا فيكَ ما ليسَ فيكَ،
وإن طعنـــوكَ في نيَّتك،
وإن رموكَ بسوء ظنهم،
وإن غمزوا فيك ولمزوا،
فلن يضركَ كل هذا ما دام اللّه يعلمُ ما في قلبكَ!
وإن كالـــوا لكَ المديــح أطنـــاناً من الكـــلام،
وإن مجَّـــدوكَ وصنَّفـــوكَ مـــن الصـــالحين،
وإن ألبسوك ثياب المتقين،
فلن ينفعكَ كلّ هذا مـــا دام اللّه يعلمُ مـــــا في قلبكَ!
وتذكّر: إنّ اللّه لاينظرُ إلى وجوهكم
وإنّمـــــا ينظـــرُ إلى قلـوبكـــم،
فأصلِحْ موضعَ نظرِ الخالق ثم امضِ مطمئناً!

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾

الشكوى إلى النّاس مجلبة للشفقة،
والشكوى إلى الله مجلبــة للرحمة،
لا يشكو الضّعيف لضعيف مثله، وكل النّاس ضعفاء!
ولا يشكو الفقير لفقير مثله، وكلّ النّــاس فقــراء!
الضعيف يلوذُ بالقوي، ولا أقوى من الله!
والفقير يلوذُ بالغني، ولا أغنى من الله!
عشْ ضعفكَ كاملاً أمام الله:
ابكِ، واشكُ، وتذلّل، واطلُبْ،
أمّاَ مع الناس فارفعْ رأسكَ، وعُضَّ على جرحك،
نظرات الشفقة في عيون النّـــاس، كسرٌ آخــر،
والاتّكاءعلى أكتاف النّاس، عرجٌ آخر!

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾

إنكَ لا تعلمُ بأيّهما تفرح أكثر؛ بالسبب أم بالنتيجة؟
السبب: اذكروني
النتيجة: أذكركم
إن اللّٰه تعالى لا يُعصى غلبةً،
ولا يُطاع إلا تكرّماً!
وهذا أجمل ما في الطاعة؛ أن تعرف أنّه تكرّم عليكَ!
لقد نظرَ إلى قلبك، فاستحسنه فألهمكَ ذكره!
ويا لها من ترقية، ويا له من نيشان!
ثم استمتِـــعْ بالنتيجـة: أذكـــركـــم
تأمل المشهد بقلبك، أنت تذكره بلسانك وتعدّ تسابيحك على أصابعك،
وملك الملوك وجبّار السماوات والأرض، يذكرك!
لو قيل لكَ أنّ رئيساً أو ملكاً ذكركَ لطرتَ فرحاً،
وربّما لن تنام تلكَ الليلة!
فما بالك والذاكر لكَ مَن بيده ملكوت كلّ شيء؟!

﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

قالوا: أفضلُ العبادة انتظارُ الفرج:

أن يكونَ كل مـــا حولك يُوحِي أن ليس هنـــاك حـــلّ،

ولكنّك مـــؤمن أنّ الأمـــر بيد الله!

وأنّ كلّ ما حولك مجرّد أسباب تجري على النّاس،

لا على الله!

لا تيأسوا، لم يقلهـــا يعقوب عليه السلام في رخـــاء،

قالها حين فقد بنيامين، بعد فقدِه ليوسف عليه السلام،

فمـــا هي إلا أيّـــام حتى كـــان يشَمُّ ريح يـــوســـف،

وما هي إلا أيام بعدها، حتى كان يضمّه إلى صدره،

ثِقْ باللهِ دوماً!

﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

لن ينسى اللهِ لكَ خواطرَ جبَرتها،
ولا دموعاً مسحتَها،
ولا حــزنــاً أزلتَـه،
لن ينسى لكَ دموعكَ وأنتَ تدعوه دعاء الموقن بالإجابة،
لن ينسى لكَ كتمان الإساءة وأنتَ القـــادر على ردِّها،
ولا انسحابك من معركة الكلّ فيها خاسر،
لن ينسى لكَ صبركَ فيٍ لحظات البـلاء،
ولا شكــركَ في لحظـــات الرخـــاء،
سترى ماذا يفعلُ الله بهـذا كلّــه!

فإن جَهِلَ النــاسُ
فضلكَ فلا تبتئس
يكفـــي أنَّ اللّه
يعلــم من أنتَ

﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

أدامَ اللهُ علينا النّعم حتى ظننّا أنّها حقنا، فزهدنا في شكره!

نشتـــري مـــا نـــريدُ، وننسى من أعطـــانا المـــــال!

نروح ونجيء بكل قوة، وننسى من أعطانا الصحـــــة!

نمرُّ بجانب المستشفيات، وننسى من أعطانا العافية!

نمرُّ بجانب السجون، وننسى من أعطـانـا الحريـــــة!

نشاهد الموت والدمار في التلفاز، وننسى من أعطانا الأمن!

أخطـــر مـــرض يُصــــاب بـــه الإنســــــان،

هو أن يألَفَ النّعمة حتى لا يعــود يراها نعمة،

البيت الذي يأويكَ نعمة، فانظُــــر للمشردين!

والزوج الذي يحتويك نعمة، فانظري للأرامل!

والابن الذي يركض إليكَ نعمة، فانظرْ من حُرِمَ الإنجاب!

غارقون نحن في نعـــم الله،

مقصـــرون في شكَر مُنعمها،

فردّدوا دوماً اللّهم لكَ الحمدَ: فبالشُّكر تدومُ النِّعم!

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾

المعادلة بسيطة:

إن لم تستطع أن تتخلص من معصية،

فحاصرها بالطّاعات!

إذا نظَرتَ إلى ما لا يحلُّ لك، فتوضأ وصلِّ!

وإذا اغتبتَ، فتصدَّق!

إذا هزمكَ الشيطان مرةً،

فهناك ألف عبادة تردُّ له بها الصاعَ صاعين!

أنين المذنبين أحبُّ إلى الله من دعاء الطائعين،

الطائع قد يكون الشيطان يئس منه،

أما المذنب فما زال يخوضُ الحرب:

ينكسر بالمعصية، ويجبر نفسه الطاعة،

يتعثر بالذنب، ويقوم بالعبادة!

فما دمتَ تُذنبُ وأنتَ منكسرٌ،

وترجعُ إلى الله وأنتَ في خجلٍ،

فاطمئن فإنّكَ على خيرٍ!

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾

لا تنتظِرْ الثنـــاء على كـل خيـر تفعلـــه،
ولا تبحَثْ عن التّصفيق على كلّ عملٍ بطوليّ،
عشْ بقلب أبيض،
ساعِدْ من يُحتاج المساعدة،
وواسِ من يحتاج المواســاة،
أقِمْ متعثراً، وانصُر ضعيفاً،
اجعَلْ فعل الخير عادةً فيـك كالتنفس،
إذا تصدقتَ، فأشِحْ بنظرِكَ سريــعاً،
كي لا ترى انكسار الفقير أمام عينيك!
وما أنبل موسى عليه السّلام حين قدَّم يد المساعدة
ثم مضى، فأثابه الله بما هو أجمل من كلمة شكر،
تذكّر دوماً أنّك تتعامل مع الكريم!

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

خطّطوا لقتله،
ثم قرّروا أن يفعلوا خير الشّرّين،
رموه في الجُبِّ، فبيع كما يُباع العبيد في الأسواق،
وعندما جاؤوه معتذرين، طوى الصّفحة سريعاً،
هكذا هم النبلاء، لا يذكرون الماضي،
كان مسعود الهمذاني كثير الصّفح عن الناس،
وإذا جاءه من يعتذرُ منه،
قال له: الماضي لا يُذكر!
وعندما ماتَ مسعود، رؤي في المنام،
فقيل له: ما فعلَ الله بكَ؟
قال: أوقفني بين يديه وقال لي:
يا مسعود الماضي لا يُذكر، خذوه إلى الجنة!

﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾

لن أخاصمك،
أنا لا أرفــع سيفاً في وجــه شخص أحببــته،
لا تهون عليّ العِشرة، ولن أنسى الفضل بيننا،
لكن حين تصلَ الأمــور إلى طـريق مســدود،
ويسقط شيء من الاحترام والثقة،
أتوضأ وأصلّي ركعتين ثم أقـــول:
"اللهم اربط على قلبه وقلبي، وأبدله
خيــراً مني وأبــدلني خيــرًا منــه"
ثــم أسلّــم وأمضـــي،
وأنا حين أمضي لا أعود!

﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾

لم يكن الخضر بطل القصـة الوحيـد،
موسى عليه السلام كـان بطلاً أيضـــاً!
وحين أنكر على الخضر خرق السفينـة،
لأن ظاهر الأمر عدوان،
وحين أنكر قتل الغـلام،
لأن ظاهر الأمر جريمة،
بدا إنساناً صاحب مبادئ من الطراز الرفيع،
لا يسكت على ما يراه باطلاً،
ولا يُحابي الخضر رغم أنه قطع الأرض ليتعلم منه!

اللهمّ يقيناً كيقينِ موسى

لما رأى البحرَ أمامه،

وفرعونَ وراءَه،

وقومَه يقولون له:

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

قال:

﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

ويقيناً كيقينِ النبيّ ﷺ

لما قالَ له أبو بكر:

" لـو نظرَ أحدُهـم تحت قدميـه لرآنـا"

فقال له ﷺ:

" يا أبا بكر ما ظنّك باثنيْن الله ثالثهما"

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ
لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾

اللّهمّ شيئاً كهذا،

ربطاً على القلب،

يشبه الذي كان على قلب أم موسى!

﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَى﴾

اللّهم شيئاً كهذا:

لأمنياتنـــا، لانتظـــارنا، للَهفتنا،

لما غابَ عن النّاس وعَلِمته أنتَ!

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

اللهم خفَــافاً لا لنــا ولا علينــا،

لا نُــؤذيَ ولا نُــؤذَى،

لا نَجرَحُ ولا نُجـرَح،

لا نَهينُ ولا نُهـــان،

اللهم عبوراً خفيفاً،

لا نشقى بأحدٍ ولا يشقى بنا أحد!

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾

هنا يستريحُ القلب،
ويطيبُ التسليم،
فمن ذا يُدبِّرُ الأمرَ كما يفعلُ صاحبُ الأمر!

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾

ثقْ بالله،
أَنّ في تأخير الأعطيات حكمة،
حتى وإن غـــابتْ عنـــك،
وفي المنــع رحمــة،
حتى وإن لم تدركها،
مع الوقت، ستدرك أن الله أراد لك
خيراً مما أردتَه لنفسك!

﴿ إنّي أخَافُ اللَّهَ ﴾

أجمل اعتذار عن خوض صِراعٍ في التّاريخ،
قاله هابيل لأخيه قابيل!
لا تدعهم يجعلونكَ أن تتنازلَ عن دينكَ،
ولو كلّفكَ الأمـر حياتـكَ!
نعـم، يعيـشُ المـرءُ دون ديـن،
ولكن، هل سألتَ نفسكَ كيف يعيشُ؟
كالبهـائـم أكـرمـكَ اللّه،
يبحثُ عن أكبر قدر من اللذة،
وعن أطـول وقـت للبقـاء،
ثم نهاية المطـافً يمـوت!

أصل الشرور أربعة:

﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾

١- **التّعالي**:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾

قالها إبليس

٢-**الاستكبار**:

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾

قالتها عَادٌ

٣- **الاستبداد**:

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾

قالها فرعون

٤- **الغرور**:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾

قالها قارون

﴿ لا يُكلّفُ اللّهُ نفسًا إلا وسعَها ﴾

اللّه لا يضع ثماراً على غصن
لا يستطيـع حملهـا!
كلّ مسؤولية ألقاها الله على عاتقك،
أنتَ لهـا!
كلّ معـــركـة ألقـاكَ في غمـارهـا،
أنت لهـا!
كل ثغرٍ كلّفك حراسته،
فهذا ثغرك فالزمـــه!
كلّ همّ وغمّ وحزنٍ أصـابــك،
أنت بحجمه، وقادرٌ على حمله!
المصاعب والمصائب تقويك،
فلا تترك موقعك!

لا السّيارة جاؤوا من تلقاء أنفسهم،
ولا واردهم أدلى دلوه لأنه اختـــار،
ولا العزيز اشتراه لأنه شاء،
كــلُ مــا في الأمــر أنَ

﴿ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ ﴾

أجمل ما تُقدّمه لأحدهم،

أن تَرْبِـتَ على قلبـه!

إنها سورة الكهف :

السّفينةُ التي لــــو لــــم تُثقب لسُلـِبتْ؛
يبتلي الله بالصغيرة لينجي من الكبيرة!
والغلام الذي لو لم يُقتل لأشقى والديــه؛
في أخـــذ الله عطـــاء!
والجدار الذي لو لم يُقم؛
لضاع مال اليتيمين
أي وفاء هذا يا رب؟!
لذا مع كل ثقبٍ،
وكــل فقــد،
وكــل نعمــة،
ردّد: **" اللهم صبراً على ما لم نحط به خبرا"**

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾

لا القـرآن سيخبـو،
ولا الحجاب سيُخلـع،
ولا الأذان سيسكـت،
ولا الجهاد سيتوقف..
قافلة الإسلام سائرة،
من ركبَ فيها وصـل،
ومن تخلّف عنهـا تـاه،
" وليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار"

أمّا القريب فقال:

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾

وأمّا الغريب فقال:

﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

إنَّ الحُبَّ رزق

وإنك لا تعرفُ في أي قلبٍ رزقك!

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

عندمـــا يعلمُ هُـدهُـد
مـــا خفـــيَ على نبيّ،
فهذا درسٌ بليغٌ مفادهُ:
أن تواضعوا،
ما فاتنا من العِلم أكثر مما أدركنا منه،
وكمـا قـــال أبَو نواس للنّظـام:
فقلْ لمن يدّعي في العلم فلسفةً
علـمتَ شيئاً وغـابَتْ عنكَ أشياءُ!

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ
فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾

الصبيُّ الذي أُلقي في الجُبِّ،
وانتشلـــه دلـــو،
وبيع بثمن بخس،
كان يُعدُّ على مهل ليكون عزيز مصر،
صفحـة قاسيـةً في كتـاب أيامـك،
قـد تكـون مجـرد تمهيـد لأجمـل
صفحات حياتك، فأحسِنْ الظنَّ بالله!

﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾

لا تُحزنني نهاية العلاقات،
الحياة كلها ستنتهي يوماً،
إنما يُحزنني الطريقة التي تنتهي بها،
أُحبُّ أن أخرج من علاقاتي بعنـــاق،
كأنما أودِّعُ عزيزاً في المطار،
لا أن أخـــرج منهـــا نـــازفاً،
كـــأنني كنتُ في معركـــــة !

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

عندما أنصحك

فلستُ أقــولُ لكَ: **أنــا خيــرٌ منــك**

وإنما أقول لكَ: أنا **أتمنى الخير لك!**

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾

لا عليك إن فاتتك الوفود المتّجهة
إلى الملوك،
المهم أن لا يفـوتك الوفد
المتّجـه إلى ملك الملوك!

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

يا الله:
هذا اليقينُ الذي زرعتَه في قلبِ أم موسى،
وهي تلقيـــه في النـــهـــر،
وكلها ثقة أنكَ ستعيده إليها،
اُرْزُقْنِي مثله!

مهمـــا بلغَ الإنسان
مــن الصــــــلاح...
فــلا بُدَّ له من كـــاره
حتى الأنبيـــاء لــم
يحبهم كل الناس!

﴿ إنَّ هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾

هذا ما قاله فرعون عن موسى عليه السلام ومن معه،

هكذا هم الفراعنة دوماً:

تغريهم أعداد قطعانهم !

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾

من كان يظن أن موسى عليه السلام،
الذي عمـــل راعيا لسنـــوات،
سيصبح بعد أعوام كليم الله؟!
وأن محمداً ﷺ،
الذي كان يرعى الغنم لسادة قريش،
لقاء أجر زهيد،
سيصبح بعد سنوات خاتم النبيين والمرسلين؟!
لعلّ أجمل أيام عمرك لم يأتِ بعـــد،
قليـل من الجهـد،
وكثير من حسـن الظـن بالله،
سترى أن القـادم أجمـل!

إنّ من أعظم نعم اللّه على عبده،
أن يُحببه إلى خلقه!

قال اللّه تعالى لموسى عليه السـلام:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾

يقول ابن كثير:

ما رأى أحد موسى إلا أحبه!

قال ابن المكندر لأبي حازم:

يلقاني الناس فيدعون لي بالخير،

ما أعرفهم، وما صنعت معهم خيرًا

فقال أبو حازم: ذلك فضل اللّه،

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾

مَنْ ضَاقَتْ عليه

فألهَمَه اللّه دُعاءَ يونس عليه السلام:

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

فقد هيّأَ له المُتّسع!

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾

قالها يعقوب عليه السّلام بعدما
فقَــدَ ابنَــه ...
وفقَدَ بصرِه ...
فأعاد الله إليه ابنَه وبصرَه!
فمــن أراد أن يشكــو،
فليكن الله وجهَتَـه!

اللهم إنّي أسـألك على أوامـرك

تسليماً كتسليم نوحٍ عليه السّلام

لمّا قلتَ له: ﴿ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾

لم يسألكَ: وماذا تفعلُ سفينةٌ في الصحراء يا ربّ؟!

مــن لطــائف مــا قــرأتُ في التفســيــر
قول الإمام القشيري عن قول سيدنا سليمان
عن الهدهد:
﴿ لأعذّبنَّهُ عذابا شديدا ﴾
قــال العــذاب الشــديد،
أن يُفَرّقَ بينه وبين مَنْ يُحِبُّ،
فإن الفرقة عن الحبيب تجعل المرء
كـأنمــا يتنـفسُ من خـرم إبـــرة!

في يـــوم عاشوراء
وصل موسى عليه السلام إلى الشاطئ
لم يكن هناك مفرٌّ
البحرُ أمامـــه ...
وفرعون وراءه ...
وبنو إسرائيل يقولون له: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾
ولكنـــه أجـابهـم إجابـة الواثـق بربـه
﴿ كلا، إنَّ معيَ ربِي سيهدين ﴾
اللهمَّ يقيناً بكَ كيقين مـوسى،
وتصديقاً بوعدكَ كتصديق موسى،
وثقة بك كثقة موسى!

﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾

أجمل صور الحُب هو الحثُّ على الطاعة،
فمن لا يهتم بآخرتكَ لا يهتمُّ بكَ،
إذا رأيتَ صديقاً على المعصية، ولم تنصحه،
فاعلمْ أن حبّكَ له ناقص!
أتخاف جرح مشاعره، ولا تخاف عليه من النار؟!
خُذْ بأيدي أحبابكَ إلى الجنَّة،
من رأيته على طاعة، فأثنِ عليه!
ومن رأيته على معصية،
فأعدهُ إلى الله، ولو جراً من رقبتهً!
قال عمر بن عبد العزيز لصاحبه: إذا رأيتني قد ضللتُ الطريق،
فخُذْ بمجامع ثيابي وهزَّني هزاً عنيفاً،
وقُلْ لي: يا عُمر اتّقِ الله فإنّكَ ستموت!

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾

كلّ هـــروب يلزمـــه بالضـــرورة جبـــان،
وحده الهروب إلى الله حرفة الشجعان!

الهروب إلى الله هروب منتصر، لا هروب مهـــزوم،
وقـــرار شخص قوي، لا قـــرار شخـــص ضعيـــف!
ثمّة بطولات من نوع آخر:
أن تمتنع عن المعصية وأنتَ قادر عليهـا، بطولـــــة!
وأن تعـــود منكسراً بعـد كلّ معصيـــة، بطولـــــــة!
وأن ترفع عنك غطاءكَ لتقوم لصلاة الفجر، بطولة!
ليست البطولة في قوة العضلات فحسب!
صعد عبد الله بن مسعود يوماً إلى شجرة،
فضحك الصّحـــابة من دقّـــة ســـاقيْـــه،
فقال لهم النبيُّ ﷺ : والذي نفسي بيـده،
لهمـــا أثقل في الميزان من جبـــل أحــد!

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾

عندمـا يستخدمكَ اللهُ لخدمــة دينه،
فاعلم أنّه قد اطلَّعَ على قلبكَ فارتضاه،

إنّ الإنسان وهو إنسان، يأنف أن يستخدم أداة متّسخة في عمله، **فكيـف بالله وهـو الله!**

فكلّ من كان في غير طَريق الله،
فاعلمْ أنّ الله قد اطّلعَ على قلبه، فأنفَ منه،
لا تحسـد المشـاهير في توافـه الأَمــور،
لو أحبّهم الله، لاستخدمهــم في طاعتــه،
ولا تحسد أصحاب المليارات الذين ليس لهم أعمال خير،
ولو أحبهم الله ما استغنى عنهم!

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾

قصيرةٌ، مهما طالتْ بنظركَ!

وقد قيل لنوحٍ عليه السّلام، لماذا اتخذتَ بيتاً من قصب؟

فقال: هذا بيت الراحل!

عاشَ أكثر من ألف سنة، وكان يراها قصيرة.

وقـــــال النبيُّ ﷺ: مـــا لي وللدنيـــــا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلَّ تحت شجرةٍ ثم راح يتركها!

صغيرة، وإن كبرتْ في عينـيـك!

فلو كانت تساوي عند اللّه جناح بعوضة،

مـــا سقى منها كافـــراً شربـــة مـــاءً!

زائلة، وإن حسبتها تبقى!

قال الخليفة المنصور للربيع: ما أطيب الحياة لولا الموت.

فقال له الربيع: ما طابتِ الدنيا إلا بالمــوت!

فقـــــال لـــــه المنصـــــور: وكيـــــف ذاك؟

فقال له: لولا الموت ما وصلت الخلافة إليك!

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

وترى المتجبّر العـــاصي يغترُّ بقوّته ويســـأل:
لماذا لم يعاقبني الله؟!
أيّها الجاهل: وأيُّ عقوبة أقسى مما أنتَ فيه؟!
تمرُّ بكَ الجنازة فلا تعتبرْ،
وتسمعُ بالآية تتحدثُ عن الموت فـــلا تتعظْ،
وترى المسكين فلا يرقُّ لكَ قلبه،
ثم ما زلتَ تسأل: أين العقـــاب؟!
أي عقاب أقسى من أن يكون قلب المرء مقبرة؟!
كان ابن القيّم يقول:
ما ضُربَ عبدٌ بعقوبةٍ أكبر من قسوة القلب!

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾

اُنظُرْ في الكائناتِ من حولك:
الطّيور، والأسماكَ، والضفادع، والأفاعي، والبكتيريا،
وكلّ الحيوانات،
ليس لهــا ملابس فيهــا جيـــوب،
ولا يوجد لديهــا حســابات بنكيــة،
ولا ضمان صحيٌّ، ولا راتب شيخوخة،
تنهضُ في الصّباح وكلّها ثقة بربها أنه سيرزقها،
فلا تجد حيواناً يموتُ من الجـــوع!
فسلِّمْ أمركَ لله!
يروي أهل الأخبارَ أنّ سليمان عليه السلام قال للنّملة:
كم حبةً تأكلين في العــام؟
فقــالت: حبتين
فوضعها في صندوق، وضـــع معهــا حبتين،
وبعد سنة عاد فوجدها قد أكلتْ حبةً واحدة،
فسألها عن السبب،
فقالتْ: عندما كنتُ طليقةً، كان أمري بيد الله،
وكنتُ أعــرفُ أنـــه لــن ينســاني،
فلما صار أمري إليكَ خشيتُ أن تنساني!

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾

يا لَهُ من دُعاء!

مَن ذاق لذَّة القرب من الله،

خف من وحشة البعـد عنـه!

فسلوا الله أن لا يحرمكم لذَّة قربه!

فكـم من إنسـان قد اقترب، ثـم انتكسَ!

وكـم إنسان أقبل على الله، ثم أدبـرَ!

هؤلاء، حسبوا الثبـات أمـراً بأيديهم،

فصدَّهم الله عن بابه.

وإنّ الطّائع يخاف أن يترك طاعتــه،

أكثر ممّا يخاف العاصي من معصيته!

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

غابوا عن عيون النّاس،
ولكنّهم عرفوا أنّ عين الله ترقبهم،
فتركوا الحرام رغم قدرتهم عليه،
وكبتوا الشهوات رغم كل الإغراءات،
وهجروا المعاصي رغم سهولة فعلها،
ما دفعوا الشهوة عن كرهٍ لها،
وما امتنعوا عن المال الحرام كراهية بالمال،
وإنما تركوها لله!
استشعَروا نظره إليهم، فاستحيوا منه!
وهذه هي الخشية بالغيب:
تركُ المعصية رغم الأمنِ من الفضيحة!

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾

ظنَّتْ بلقيسُ أن الصَّرحَ الممرّد من زجاجٍ، ماءً
فكشفتْ عن ساقيها لتعبره،
إلى هذه الدرجة كان ثوبها طويلاً وساتراً،
فالستر، لباس الملكات منذ فجر التاريخ،
أما التّعرّي، وإظهار المفاتن، فكان للغواني
اللواتي يسعين بهذا لإيقاع الرجال في شِراك فتنتهنَّ.
انظري إلى لباسك، ثم صنّفي نفسك:
مع الملكات كبلقيس، أم مع الأخريات؟!

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾

القلوب تزيغ، والمثبّت اللّٰه!

فمهما بلغ الإيمان في قلبك، لا تتوقّف عن سؤال الثبات.

وكانَ أكثرُ دعاءِ النبي ﷺ:

اللّهم يا مقلّبَ القلوب ثبّت قلبي على دينك!

هـــذا، وهو نبيّ الأمّـــة، وأفضـــل الخلـــق!

لولا تثبيت الله لقلوب عباده، لَلَعِبَتْ بهم الشياطين،

ولما قام أحدٌ منهم بأمر الله،

كان فتية الكهف على دين الحق، ومدينتهم كلّها تعبد الأوثان!

فلمّا ربطَ الله على قلوبهم، هــانَ عندهم كل شيء!

وأم موسى عليه السلام من قبل حين ألقته في اليمّ،

لـــولا أن ربطَ الله على قلبهـا، لـم تفعـل!

فسَلِ اللّٰه دوماً الثباتَ وأن يربطَ على قلبك!

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

حياتُك كتاب ستقرأه يوم القيامة بين يدي الله،
فحذارِ أن تكون مؤلّفاً سيّئاً!
اُكتبْ اليوم ما لا تخجل أن تقرأه هناك غداً!
وما زال كتابك بيدك،
ومعكَ ممحاة الاستغفار، لتمحو بها ذنوبكَ،
وصفحات بيضاء كثيرة، لتكتب فيها سطوراً مشرقة،
اجعل لكَ صفحاتٍ من صدقة،
وفقراتٍ من جبرٍ الخواطر،
وسطوراً من قيام الليل،
ولو حتى فاصلةً من صيام التّطوّع!
صحيح أنّه لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله،
فحتّى النبيُّ ﷺ سيدخلها برحمة الله،
ولكنّ الأعمال الصالحة مجلبة لرحمته سبحانه!

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾

يعلمُ اللّه سبحانه أنّ رجلاً شديداً لا يقوى على هزِّ نخلة،

فما بالكَ بامرأة قد وضعتْ مولوداً للتوّ!

ولكنّه، حين قال لها: هُزي،

فقد أراد منّا أن نأخذَ بالأسباب،

وليعلّمنا أن السَّعي مطلوب،

فاللّه سبحانه يخلقُ الدّودة أو حبّةٍ القمح للعصفور، ولكنّه لا يلقيها له في عشّه!

الذي رزقَ مريم ولداً دون زوج،

كان قادراً أن يُسقط عليها الرُّطب دون هزِّ الجذع،

ولكن أراد منّا أن نبذل الجهد والطاقة ونسعى،

ثمّ نعلمَ يقيناً أنّها مجرّد أسباب، لا تنفع ولا تضر!

﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

تمرُّ بالإنسان لحظات تضيقُ الدّنيا في عينيه،
ويشعر أنّ هذا الكوكب كلّه جاثم على صدره،
لا من قلّة الإيمان، ولكن من قسوة الحياة!
كانت مريم راسخة الإيمان، عميقة الثّقة بالله،
ولكنّ الخطب جلل، والحدثَ عظيم،
ولدٌ دونَ أب ستأتي به إلى قوم قساة القلوب،
فضاقتْ بها الدنيا!
تكسرنا الحوادثُ أحياناً،
وتمرُّ بنا أيام ثقال، نحسبها لن تمضي،
عشْ إنسانيتَكَ بضعفها، وقوّتها،
ولكن في كلا الحالتين،
كُن مع الله يكُن الله معك!

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾

لــــو استغنى أحدٌ عن المواساة في ظروفه الصعبة، لكانت مريم البتول الراسخة في إيمانها أغنى الناس!
ولكنّنا نهاية المطاف بشر، ونحتاج من يربّت على قلوبنا!

فإذا رأيتَ إنساناً منطفئاً، فاربتْ على قلبه، وطيِّبْ خــــاطره حتى يُضيءَ مجـــــدداً!

أبو بكر الصديق خير الناس بعد الأنبياء وأرفعهم إيماناً،
ولكن النبيَّ ﷺ في الغار يربّتُ على قلبه ويقول:
يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟!
يا أبا بكر، لا تحزن إنَّ الله معنا!
حتى النبيُّ ﷺ، عندما ماتت خديجة، وعمه أبو طالب، وفقد أشرسَ مقاتلين معه،
علمَ الله حزنه وانكسار قلبه،
فكانت حادثة الإسراء والمعراج، حيث أخذه الله إلى السماء ليعزيه،

أحياناً، تضيقُ الأمور حتى أن الدنيا كلها لا تكفي أن تكون عزاءً!

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

الصبرُ في ذات الله عبادة عظيمة :

صبرٌ عن المعاصي، وصبرٌ على الطاعات.
أن تكبتَ شهوتكَ وأنتَ قادر على إنفاذها،
وأن تغضَّ بصركَ والمشهد مُغرٍ،
أن تمتنع عن الرشوة والأمر ميسّور لا فضيحة فيه،
كل هذا صبر عن المعاصي وأجره عند الله عظيم!
وأن تتصدقَ وفيك حُبُّ المال غريـزة،
وأن تنهضَ لصلاة الفجر والنوم لذيذ،
وأن تمشيٍ في برّ أبويـك وكـلّ حيـاتـك مشـاغـل،
هذا أيضاً صبر على الطّاعات وأجره عند الله عظيم!

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾

بدأ سليمان عليه السلام دعاءه بالتوبة والاستغفار،
وهذا من فَهْم الأنبياء وفقههم،
لأنه لا شيء أمنعُ من إجـابة الدعـاء كالذنــوب!
وربما سأل العبدُ ربّه شيئاً،
فما حال بينه وبين الإجابة إلا ذنبٌ هو مقيم عليه،
فـإذا تأخرت الإجـابــة فراجـع حساباتـكَ،
وانظُرْ في الذنوب التي أنتَ غارقٌ فيها، فبسببها
حُبست الإجابة!
ولا تعتقدْ أنكَ لم تُعطَ لأنكَ سألتَ كثيراً،
لا شيءَ كثيرٌ على اللّه!
وهذا سليمان عليه السلام سأل تسخير الجنّ له
والريح ولغة الطير،
فأعطاه اللّه كل هذا، ولكنه بدأ أولاً بالتوبة قبل السؤال!

المال الذي يجعلك
متكبراً فقر..
والشهادة التي تجعلك
متكبراً جهل..
والمنصب الذي يجعلك
متكبراً انحطاط !

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾

هكذا كان إبراهيم عليه السّلام عندهم: مجرَّد فتى!
أما عند الله فكان أمّة!
غُيِّرَ لأجله قوانين الكون كلها،
أُلقي في النار فكانت عليه برداً وسلاماً،
بلغتْ زوجته سارة من العمر عتياً وصارت عجوزاً،
فأصلحها الله له، لتنجب له إسحاق عليه السّلام
وعندما أراد الفرعون أن يستأثر بسارة،
كشفَ الله له سبحانه حجب الغيب،
فكان يرى المشهد ليطمئن قلبه،
فلا تبحثْ عن قيمتك في أعين الناس،
قيمتك الحقيقية هي: من أنتَ عند الله!

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾

سلاماً للذين لا يأخذون كلّ شيءٍ على محمل الجِد،
الذين لا يبكون عند كل عثرة،
ولا يقفــــون عند كـل كلمـــــة،
ولا يُعلّقون أخطاءهم على شمّاعة الآخرين،
الذين يعلمون أنّ الدنـيا أســود وأبيــض،
وأن الشرّ جزء منهــا كمــا الخير تماماً،
الذين يُؤمنــون أنهــا طريــق عبــور،
وأن الرّضا عن الله أسلم مراكبِ العبور!

﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾

أمّا بعد،
العباداتُ قبل العَادَات،
والحَرامُ قبل العَيب،
والشّرعُ قبل الواقع،
والسُّنةُ قبل المألوف،
والله قبل النّاس،
والسّلام!

عندَ العزيزِ
كان يقدرُ على الخطيئَة لكنّه قال:
﴿ معاذ اللّه ﴾

عند الملك
كان يقدر على الانتقام لكنّه قال:
﴿ يغفر اللّه لكم ﴾

قيمتنا أحيانا في ما لا نفعل!

وحدكَ يا الله

كنتَ ترى الوجع في قلب يعقوب

حين قال :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾

اللهمّ إنّ شيئاً في القلب كهـــذا الآن،

فَبرحمتك، قُلْ لفرحة يعقوب بيوسف

أن تمرّ بي!

تتأخر الإجــابـة
لأنّ في قدر اللّه رُتبة لك،
لــم تصـل إليهــا بعـــد!

ولأنّ في القـــلبِ قسوة،
يريدُ اللّه أن يُلينَها لك!

وتتأخر الإجابة،
لتَحطّ عنك كل عُجبٍ بطاعتك،
وكل غرور بقلبك،
وكل مقارنة فاسدة حسبتَ فيها أنك أفضل من غيرك،
وكلّ عاصٍ نظرتَ إليه بعين الازدراء بدل الرحمة..

ثمّ بعد ذلك يستجيب!

ونعوذُ بكَ،

أن تَزِلَّ الأقدامُ بعد ثبوتها!

ونعوذُ بكَ،

أن نأتيَ ما كنا ننهى النَّاسَ عنه!

ونعوذُ بكَ،

أن تملأنا طاعاتنا بالعُجب!

ونعوذُ بكَ،

أن ننظر للعصاة بعين الاحتقار بدل عين الرحمة!

ونعوذُ بكَ،

من نعمة تُطغينا!

ونعوذٌ بك،

من مصيبة تُسخطنا على قضائك!

نعوذُ بكَ منكَ،

ونهربُ منكَ إليكَ!

عن النّبي العظيم موسى عليه السلام؛

أمه: ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي ﴾

أمه الثانية: ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾

أخته: ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾

زوجت: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾

لا يوجد رجلٌ عظيمٌ ليس للنساء يد فيه!

اللهمّ يقيناً كيقينِ موسى،
لمــا رأى البحرَ أَمــامــه،
وفرعونُ وراءَه،
وقومُه يقولون له: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾
فقال: ﴿ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

ويقيناً كيقينِ النبيﷺ
لما قالَ له أَبو بكر: لو نظرَ أحدُهم تحــت قدميــه لرآنا
فقال له النبي ﷺ: **يا أبــا بكر مــا ظنّك باثنين الله ثالثهما؟!**

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

ثمّة كلام يُشبه العناق،

ثمّة مفردات كأنهـا حضَن،
تضيقُ بنا الدنيا أحيـــانًا،
فتأتي كلمة حانيةٌ من صديقٍ لتوسعها،
وينكسر الخـاطر أحـيانًا،
فتأتي لمســة حانية من حبيبٍ لتجبره،
ويحزن القلب أحيـــانًا،
فيأتي عناق من قــريب ليفــرحه!
ما نحن في هذه الدنيا إلا ضيوف،
فهوّنوا على بعضكــم الطــريــق!

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْل﴾

جاءَ موسى عليه السّلام،
ملأَ بكاؤه قصر فرعون،
كلّهم أشفقوا عليه،
ولكنّ الله الذي حرّم عليه المراضع،
كان الأرحم به،
أراد أن يردّه إلى أمّه!
لو أنّنا نستشعر رحمة الله في كل حرمان،
وحكمته في كل منع،
لهانتْ علينا الطريق!

﴿فَانطَلَقَا حَتى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْية اسْتَطْعَمَا أَهلها فَأَبوا أَن يُضَيّفُوهُمَا﴾

عندما لا يعرفون قيمتك،

تذكّرْ أن موسى والخضر عليهما السّلام
لم يجدا يوماً من يفتح لهما بابه،
ويطعمهما لقمة خبز،
يكفيك أن تعرف نفسك وإن جهلوك،
وأن تضع رأسك على وسادتك وضميرك مرتاح، وإن اتهموك!

عندما وصل موسى عليه السّلام إلى مَديَن،

لم يكن لديه بيت،

ولا وظيفـــة،

ولا زوجـــة،

صنعَ معروفاً وتولّى إلى الظّل،

ورفع يديه إلى السماء وقــال:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

لــم تغـــرب شمــس ذلك اليــوم،

إلاّ وصار لديه بيت، ووظيفة، وزوجة!

جرّبوا هذا الدّعاء بعد كلّ معروف تصنعونه!

كلّمـــا ضاقتْ تذكّرْ:
كيف أبحرَ نوحٌ بالسّفينة في موج كالجبال،
وكيــف سَلِمَ إبراهيمُ من النّـــارً،
وكيف نجا يونس في بطنِ الحوت،
وكيف شقّ موسى البحر بعصـــاه،
أجمل ما في فرج الله
أنه يأتي بعد أن تنقطعَ كلّ الأســباب،
ولا يبقى في قلب العبد إلا الله!

بدعاء واحد:

أغرقَ اللهُ الأرضَ انتصاراً لعبده نوح!

بدعاء واحد:

أصلحَ اللهُ الزوجةَ العاقر لعبدِه زكريا!

بدعاء واحد:

جعل اللهُ بطنَ الحوتِ أمناً على عبده يونس!

بدعاء واحد من إبراهيم:

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾

صارت مكة مهوى القلوب!

ثِقْ أنّ الدّعاء يعيد ترتيب ما تبعثر!

اللهم صبراً على أوامرك كصبر هاجر:
تركها إبراهيم عليه السّلام وابنها،
في وادٍ غير ذي زرع:
لا ماءً فيه ولا أنيس،
كل هذه كانت تفاصيل لا تعنيها،
لم تسأل غير سؤال جوهريّ واحدٍ
"آللّه أمرك"؟!
فلما قال لها: أجل.
قالت: اذهب، فلن يضيعنا اللّه!
اللهم قلباً كهذا،
إيماناً كهذا،
يقينا كهذا،
صبرا كهذا!

أحضرَ عرشَ بلقيس
من اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عينٍ
ثم قال:
﴿ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾

وذو القرنين،
جاء بزُبَر الحديد، وجعله ناراً، وأفرغه قطــراً،
وصنع ردماً عظيماً سجن خلفه يأجوج ومأجوج،
ثم قال:
﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾

أدب الإنجاز ردُّه إلى توفيق الله!

لكلّ حاجـة سألتَها اللّه مستغنياً عن النّـــاس،
لكلّ أُمنية استودعتَها ربّك،
لكلّ دعوةٍ دعوتَ بها ونسيتَها ولم ينسهـا اللّه،
لكلّ حاجةٍ من فرط الرغبة بها دمعتْ عيناك،
لكلِّ هؤلاء قُلْ بيقين:

﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

أوّل سلاحٍ فتّاك اِستُخدم على وجه الأرض

كان الدّعاء!

تحديداً يوم رفع نوح عليه السّلام يديْه إلى السّماء

وقال:

﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ديّاراً﴾

احذروا أولئك الذين ليس لهم إلا الله ملجأً

وليس لهم إلا الدّعاء سلاحاً!

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

لم يكن أحد من قاطني هذا الكوكب يعرفُ أن الأرض كانت تلك الليلة على موعد مع السماء !

ولم يكن أحدٌ يتصوّر أنّه من غار مظلم في مكة، سيخرج نورٌ يضيء هذه الأرض عن آخرِها !

كانت الأرض عطشى للسماء، فجبريل منذ ما يزيد على خمسمئة سنة لم ينزل بتعليمات السمـــاء إلى الأرض! وكان هذا الكوكب يغصُّ بالضلالة، بقايا من أهل الكتاب حرّفوا كتبهم، وأكثريّة تعبد ما تنحت من صخر وتأكل ما تعبد من تمر !

ثم حانت اللحظة التي شاء فيها الله

أن يضع حداً لكل هذا!

الأميّ في الغار ستنزل عليه "اِقرأ" ويعلّم المتعلمين والجهلة على حد السواء!

اليتيم الذي فقد أبويه سيرشد الآباء وينظم حياة الأمهات!

الراعي الذي يرعى غنماً لقريش لقاء دراهم معدودة سيكون على عاتقه رعاية البشرية قاطبة!

الزوج الذي يتاجر بمال زوجته سينظّم اقتصاد هذا العالم!

الصادق الأمين سيستلم بدءاً
مـن هـذه الليلـة أمـانتـه!

كان الكهف مظلماً، وهو مستغرق يتأمل منه سماءً شاسعةً، وصحراءَ مترامية، وفي قرارة نفسه أن هذا المشهد أجلّ من أن يكون من صنعة صنم صنعه عبد حبشيّ ليعبده سادة قريش!

وإذ بجبريل أمامه

دون مقدمات يقول له: اقرأ

فيجيب: ما أنا بقارىء!

فيعيد عليه: اقرأ

فيجيبه أخرى: ما أنا بقارىء!

فيقول له ثالثة: اقرأ

فيقول: ما أقرأ؟

فيجذبه بقوة ويقول له:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

فما الدروس التي نستفيدها من الآية؟

الدّرس الأوّل :

أوّل كلمة في القرآن كانت "اِقرأ" ولم تكن صلٍّ وصُم، ذاك أن العبادات لا بدّ أن يَسبقها علمٌ وعقيدة! الصلاة دون علم وعقيدة قد تُصبح مجرّد رياضة، والصيام دون علم وعقيدة قد يصبح ريجيماً ليس إلا، والطواف والسعي دون علم وعقيدة قد يصبحان محاولة لتخسيس الوزن!

لم يقل له جاهد، لأن الجهاد دون علم وعقيدة سيجعل المجاهدين قتلةً، وقطاع طرق

ولم يقل له تاجر، لأن التجارة دون علم وعقيدة ستخلط الحلال بالحرام

إن الله لا يُعبد عن جهل!

والكتاب الذي بدأ ب "اِقرأ" لا يرضى لأصحابه أن يكونوا جهلاء وأصحابَ أهواء!

الدّرس الثّاني :

عندما نزل من الغار كان خائفاً يرتجف ويتصبب عرقاً في آن معاً، لم يذهب إلى عمه حمزة وهو صائد الأسود ليحميه، ولم يذهب إلى أبي بكر صديقه المخلص ليخفف عنه،

ولم يذهب إلى دار الندوة وفيها رؤوس قريش ليتضامنوا معه،

ذهب إلى خديجة لأنها كانت عمّه وصديقه وقبيلته كلّها، كانت تترك مالها كله بين يديه لأنها كانت تعرف أنه من العيب أن يجتمع زوج وزوجته في فراش ويفرقهما دينار!

كانت أبوه الذي لم يعرفه،

وأمّه التي فقدها صغيراً،

وجـــدّه الـــذي كفلـه،

وإخوته الذين لم يأتوا إلى الدنيا!

وكان معها وفيا،

لم يتزوّج امرأة في حياتها: ذاك أن بعض النساء يجعلن الأخريات مجرّد أرقام وبفقدهنّ تصبح كل النساء سواء!

تغار منها عائشة وهي في قبرها وتقول له: أما زلت تذكرها، وقد أبدلك الله خيراً منها

فيقـول له: والله مـــا أبدلني الله خيراً من خديجـــة!

يا للوفـاء!

لا يجبر خاطر حيّ على حساب ميت أضاء له أصابعه العشر شمعاً!

وعندما تجاوز الستين من العمر، رأى صاحباتها وقد شارفنَ على الثمانين،

فخلع رداءه ليجلسن عليه، ونظر لمن حوله يزيل عنهم الدهشة،

يقول: **هؤلاء صويحبات خديجة!**

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

دُنيا يُباع فيها يوسفُ،
ويُكذَّبُ فيها نوحُ،
ويُرمى فيها للنّارِ إبراهيم،
ويُتّهمُ فيها بالسّحر موسى،
ويُقدّمُ فيها مهراً لبغيّ رأسُ زكريا،
ويُرجَمُ فيها بالحجارة محمّد ﷺ،
أتنتظرُ منها بعد ذلكَ أن تربّتَ على كتفكَ أنت؟!

هذا الكوكبُ عاق!

ومن رحمته سبحانه أنّه جعله دار زراعة لا دار حصاد!
فازرع فيها ما يسرك غداً أن يكون محصولك، ودعك منهم!

فالعفيفة عند الناس، مُعقّدة!
والملتزم بدينه عند الناس، متزمت!
والمجاهد في سبيل الله عند الناس، إرهابي!
والمتصدّق عند الناس، مبدد لماله!
والمشّاءُ إلى المساجد عند الناس، ليس لديه مكان آخر يذهب إليه! والقارىء النّهم عند النّاس، " دقة قديمة " رغم أننا أمة " اقرأ! "
أن تكون "أنتَ" وتنزل من عينهم، أفضل ألف مرة من أن تكون "هُم" وتنزل من عين نفسك!

﴿ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾

الباطلُ يكسبُ معركة، ولكنّ الحقّ يكسبُ الحرب!

كسبَ النمرودُ معركةً، ولكنّ إبراهيمَ عليه السلام كسبَ الحرب!

كسبَ فرعونُ معركةً، ولكنّ موسى عليه السلام كسبَ الحرب!

وخرجَ محمدٌ ﷺ من مكة متسللاً تحت جنح الظلام، فعاد إليها في وضح النهار ودخلها من أبوابها الأربعة !

لا يفتننّكَ الباطل لأنـــه كسبَ معـركةً،

ولا تفقدْ ثقتكَ بالحقّ لأنه لم يكسب الحربَ بعد!

يملي الله للباطل لأنه يــريد أن يُعرّيــه،

ويُؤخّر انتصار الحق لأنه يريد أن ينقّيه!

إذا بلغ الباطلُ ذروته فهذا يعني أن انتصار الحق اقترب !

سُنة الله في الكون أنه ما بلغ شيءٌ تمامه، إلا وبدأ رحلة القهقرى!

فتذكر أن أشدّ ساعات الليل ظُلمة، هي تلك التي تسبق الفجر بقليل !

﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

الأمر لم يتعلّق يوماً بالشُّموع والمصابيح والقناديل،
الأمر كان دوماً متعلقاً بالقلوب !

ما ضرّكَ لو أطفأ هذا العالم أضواءه كلها في وجهك ما دامَ النُّور في قلبك متوهجاً،

وما نفعكَ نور الشمسِ والقمر معاً ولو وقفا فوق كتفك ما دام قلبك دامساً، انظُرْ إلى يونس عليه السّلام وقد اجتمعتْ عليه ظُلماتٌ ثلاث:

ظُلمة الليـــل،
وظُلمة البحر،
وظُلمة بطن الحوت !
فهل ضرّه ذلك في شيء؟!
كل ظُلمة ليستْ في القلب أمرها يسير !
وانظُرْ إليه؛ نبيّ مُرسل، عصمه الله من الكذب والفاحشة والرياء، ولما غضب كان غضبه لله!
ثمّ لمّا صار في بطن الحوت ينادي ربه:
لا إله إلا أنتَ سُبحانك إني كنتُ من الظالمين
من الظالمين، وهو المعصوم!
ما أحسن أدب يونس مع ربّه،

وما أجمل مناجاته،

يتقرّب إلى الله بتقصيرٍ يراه في نفسه، ولا يفخر بطاعة أدّاها،

ونحن إذا صلى أحدنا ركعتين، فكأنما ضمن الجنة، لا يمنعه عنها إلا أن يموت!

تفقدوا قلوبكم، ماذا ينفع كوكب مضيء عن آخره لقلب مظلم؟!

وتذكروا دوماً :

كل عتمة خارج القلب أمرها يسير!

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وإنّي أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرّجيم﴾

الكلام على لسان امرأة عمران؛
والأنثى الوليدة محور الآية هي مريم عليها السّلام،
والقصة باختصار حتى نفهم المُراد من هذه التأملة:
هي أن حنّة امرأة عمران قد تأخرت في الإنجاب بعد مضي سنوات على زواجها،
فنذرت إن وهبها الله ولداً، أن تفرغه للعبادة وخدمة بيت المقدس، ولكنّ المولود كان أنثى، ولم يكن من عادتهم في ذاك الزمان أن تنقطع المرأة للعبادة في الأديرة،
ولكنّهم رحبّوا بمريم لمكانة عمران بينهم!
واختصموا كل يريد أن يرعاها، ولجأوا للقرعة،
وكانت القرعة أن يُلقوا أقلامهم في الماء، فمن جاء قلمه واقفًا، نال شرف رعاية مريم.
وأعادوا القرعة ثلاث مرات، وفي كل مرة يأتي قلم زكريا عليه السلام واقفًا، فكفّلها!
وزكريا هو زوج خالة مريم،
والذي يعنينا من الآية ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾

شاع الاعتقاد عند الناس أن هذه الآية انتقاص من الإناث، وتفضيل الذكور عليهنّ مطلقاً،
وهذا مفهوم خاطئ،
ولو كـــانت الآية: وليـــس الأنثى كـــالذكـر،
لأريد به تفضيل الذكور على الإناث عموماً،
أمـــا والآية وليـس الذكـــر كالأنثى،
والكاف للتشبيـــه، والأنثى مشبه بـــه
فقد أراد النص التمييز لا الانتقاص!
هذا يعني أن المرأة أفضل من الرجال في مجالات،
وأن الرجال أفضل من النساء في مجـــالات أخرى!
والاعتقاد أن الرجل أفضل من المرأة في كل وجه فهم ذكوريّ للآية،
وتعصّب للنوع لا مبرر له!
وحين يخبرنا الله أن المرأة مخلوق مغاير للرجل،
في بنـــائها الجسميّ وتـركيبهـــا النفســـيّ،
فـــإنه يريد أن يميّزهـــا،
والتمييز رفعة لا انتقاص!
الذين يطالبون بمساواة المرأة بالرجل مطلقـــاً،
إنما يهينون المرأة من حيث يعلمون أو لا يعلمون!
إنهم بهذا المفهوم يحطّون من قيمة المرأة، إذ يجعلون ميّزتها الوحيدة عن الرجل هي أنها وعاء إنجـــــاب!
لا شك أن الناس سواسية في الكرامة الإنسانيّة،

وهذا ما دأب الإسلام يثبته ويدافع عنـــه،
ولكن المرأة هي المرأة، والرجل هو الرجل؛
لكل منهما تركيبه النفسيّ،
ووظيفته في الحياة التي تتوافق مع تركيبه هذا،
وحين أسقط الإسلام الجهاد عن المرأة مثــلا،
لــم يكــن هذا الإعفـــاء على سبيــل نقــص،
بقدر ما هو شهادة تكريم!
أليس لأن الإسلام يعتبر أن المرأة مخلوق رقيق،
لها دور في الحياة يتناسب مع هذه الرقة التي حباها الله إياها،
إنّ أقسى جملة تُقال لامرأة: أنتِ كالرجال!
تثور المرأة لها ويجن جنونها،
ليس لأن الرجل مخلوق مخيف،
بل **لأن المرأة تعرف أن أجمل ما فيها أنوثتها!**
أجل ليس الذكر كالأنثى
أنتن بهذا الخطاب تُكرَّمن ولا تُنتقصن!
أنتن أجمــل من الرجـــال في الشكـــل،
وأرق منهم في العاطفة،
وأصـــدق في الحـــب،
وأصبر على القيام بأعبـــاء الأســـرة،
وأقدر على تحمل التبعات الناجمة عنه،
وإني لأقسم أن الرجال لو كان بإمكانهم الحمل والانجاب، لن ينجب الرجل أكثر من بطن واحد!
ولكنها المرأة العظيمة القديرة،

ترى الموت وهي تضع وليـــدا ً،
ثم ما تلبث غريزة الأمومة أن تستعر فيها لتعيد الكرّة،
وتمنح هذا الكوكب الحيـــاة،
نحن مخلوقون من التراب: نعمل، ونكد، ونشقى، وننتج!
أنتن مخلوقات من ضلع قرب القلب !
لهـــذا تخفقـنَ بالحـــب،
لهذا أنتن تعشقن بجنـــون،
تجد المرأة في رجل واحد دنياها،
بينما أحدنا لا تكفيه نساء الأرض!
لا توافقوهنّ في قولهم أنكنّ يجب أن تتساوينَ بالرجال،
أنتنّ تستحقنّ أن تتميزن!
أن تبقين هذا الجانب الرقيق والعذب والجميل
للبشرية، هذا الكوكب لا يحتاج مزيدا من الرجال،
يكفيه رجاله، يكفيه محاربوه، ومصارعوه، وتجاره،
وعماله، ومهندسوه!
ولكنّه ينقصه الحب!
والحب هو أساس قوتكنّ،
فلا تسمحن لهم أن يسرقوا أنوثتكنَّ باسم المساواة،
ابقينَ نساءً وافخرنَ !
ابقينَ هذا المخلوق الرقيق،
وقاتلن بشراسة كالرجال دفاعاً عن أنوثتكن !

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

هذه واحدة من أكثر الآيات التي كانت مثار جدل بين المفسّرين،
إن لم تكن الأكثر!
فقد اختلفوا فيها اختلاف النقيض للنقيض،
وإن اتفقوا جميعاً على أن يوسف لم يقع بالفاحشة،
فقد اختلفوا في تفسير الهمّ!
والغالبية العظمى من المفسّرين تقول أنّ يوسف قد همّ فعلا ليواقعها، فلما رأى برهان ربه ارتدع!
وبرهان ربه على رأي الفريقين كان صورة يعقوب عليه السلام!

فماذا تقول اللغة في هذا الشأن؟!

أولاً:
الهمّ لغةً كما في لسانٍ العرب هو حديث النّفس بالشيء،
أي قبل أن يصير فعلاً،
وهذا معنىً معروف عند العرب،
ونتكىء على الحديث الشريف لتفسير الهمّ!
قال عليه الصلاة والسلام:
من همَّ بحسنة ولم يفعلها كُتبت له حسنة!

أيٍ من حّدثته نفسه بحسنة وعزم على فعلها،
إذا، هي في منزلة الفكرة لا في منزلة الفعل !
وبما أن الفعل مراودة، أي مفاعلة، فهذا يلزمه طرفان:
الأول يُراود والثاني إما أن يُذعن أو يرفـض !
هَمّ زليخة بيوسف خرج من دائرة الفكرة لدائرة الفعل
وهذا يثبته سياق الآية،
والآيات التي بعدها وصولا لقولها:
﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾

فماذا عن هَمّ يوسف؟
لو قال الله: ولقد همّت به وهمّ بها،
وانتهى عند هذا الحد الكلام لتساويا في الفعل،
ولكنه قال:
﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾،
وهنا مربط الفرس !
إنّ في الآية تقديمـــاً وتأخيراً غفــل عنــه الكثيـــرون.
وتقدير الكلام :ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان رّبه
لهمّ بها !
لـولا: حـــرف امتنـــاع لوجـــود !
كقولك: لولا غلاء السّعر لاشتريتُ الثوبَ
فإذًا، أنا لم اشترِ

ويوسف لـــم يهمّ !

قد يســـأل سائل:

لماذا لم يقل الله: ولقد همّت به ولم يهمّ بها؟

أليس هذا أوضح للمعنى وأيسر؟!

الجواب: لا !

لأنه لو قال: ولقد همت بــه ولــم يهم بهــا،

لنفى الفعل ولم ينــفِ البـــاعث عليـــــه !

فلربمـــا لــــم يهمّ لأنهَ ارتبـك،

أو لأنه خاف أن يبطش به زوجها، أو تفاجأ!

إن سياق الآية جاء لانصاف يوسف لا لإثارة الشك حوله !

ثانياً:

نرجع لسياق الآية:

قال الله ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾

وانظر لدقة التعبير :

لنصـــرف عنـــــه الســـوء،

ولم يقل لنصرفه عن السوء !

فلو أن يوسف عليه السلام همّ فعلا ليواقعها، لكان الله صرفه عن السوء، لأنه في معرض الوقـــــوع به !

ولكنّه لما قال لنصرف عنــــــه الســـــوء،

فإن السوء هو الذي تبع يوسف لا العكس !

ثالثاً:

يختم الله الآية بوصف يوسف عليه السلام قائلاً:

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾، بفتح اللام، والفرق بين المُخلَصين والمُخلِصين مهمّ جداً لنفهم ما حدث.

المُخلِص: هو من أخلص عبادته لله فلم يشرك به شيئاً، فهو اسم فاعل، وتحته يندرج عامة المؤمنين الذين غلبت طاعاتهم على معاصيهم ولكن يمكن أن تقع المعصية منهم!

المُخلَص: هو من اختاره الله سبحانه فهو اسم مفعول، وهو بالضرورة معصوم وهذا شأن الأنبياء جميعاً.

وحين وصفَ اللهُ موسى عليه السلام قال عنه ما قال عن يوسف:

"إنه كان مُخلَصاً وكانٍ رسولاً نبياً"

بفتح اللامٍ، أي مُختاراً ومصطفى من قبل الله، أي نبياً ومعصوماً،

أي لا يتساوى مع زليخة في فعل واحد!

ونختم بسياق الآيات

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾

كيف تهمّ به، ويهمّ بها، ويكون ممتنعاً؟

لو صحّ رأي أغلب المفسرين بأن الهمَّ حدث فعلا،

وتوقّف بعد رؤية البرهان،

لما كان يوسف عليه السلام مستعصماً!

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾

حتى الجنّة التي جعلها الله دار قرار لم تخلُ من امتحان !

فما بالك بالأرض التي جعلها الله دار عبور؟!

ولكن، انظر لرحمته سبحانه حين حرّم شجرةً واحدة،

أباح شجر الجنّة كلّها !

ولكنّها وظيفة الشيطان: أن يزيّن للناس الحرام!

مع أنّ الشجرة لم تكن تختلف عن باقي الأشجار،

ولكنّه يلعب على وتر الناس الحسّاس،

فأغرى آدم بالخلود!

هذا فعله في الجنّة،

وقد ضمن الله لآدم أن لا يجوع فيها ولا يعرى،

ولا يظمأ فيها ولا يضحى،

فما بالك بالدنيا التي جعلها الله دار أسباب وسعي؟!

دار كد وشقاء؟!

دار مرض وعجز؟!

ولكنّها القصة القديمة ذاتها،

سعة الحلال، وضيق الحرام!

وإبليس يضيّق في عيون النـــاس الحـــلال، ويوسّع لهـــم الحرام!

حين حرّم الله الربا، أبـاح الكثير من وســائل الكسب، ولكن إبليس لا يألو جهداً لإقناعنا أنّه الوسيلـة الأيـسر للرزق، رغم أنه ممحوق البركة مهما كثُر!

حين حرّم الخمر، أبـاح الكثير من المشـروبـات، ولكن دأب إبليس أن يزيّنها للناس!

حين حرّم لحم الخنزير، أباح الكثير من اللحوم، ولكن هذه وظيفة إبليس أن يوهم الناس أن الحرام ألذّ!

حين حرّم الزنا، أباح الزواج، ولكنّ إبليس لا يكلّ يزيّنه في عيون النّاس!

إن كنا قد خرجنا من الجنّة مجبرين، فها نحن في محطة الدنيا، وفيها قطاران: قطار الجنّة، وقطار النار!

فاختاروا قطاركم!

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

أكثر ما يركض الإنسان لأجله؛ رزقه
ولن ينال من الرزق إلا ما كُتب له، مهما ركض!
وأكثر ما يهرب منه؛ أَجَله
وليس يعيش أكثر مما كُتب له مهما هرب!
قبل أن نحلّ ضيوفاً على الحياة،
كُتب الرزق، وكُتب الأجل!
ولن ينال الضيف من الرزق، إلا ما شاء صاحب الضيافة أن يعطيه!
ولن ينال من العمر، إلاّ ما شاء سيّد الحياة أن يحييه!
فاستريحوا، ثمّ دقّقوا:
حبّة القمح تُزرع في بلد،
وتصير طحيناً وخبزاً في بلد،
ثم تُحمل إليك رغيفاً؛ لأنّه قبل أن تكونَ، كُتبَ أنه لك!
هكذا، بكل بساطة يعمل آلاف الناس لايصال لقمة لك!
وتعمل أنت وآلاف النّاس ساعي بريد لإيصال لقمة غيرك؛ لأنها منذ البداية كانت له!
ولو هرب الإنسان من رزقه كما يهرب من أجله،
لَتَبِعه رزقه كما يتبعه أجله!

﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ﴾

وفي لغة العرب كلّ ما دبّ على الأرض فهو دابة،
كما كلّ مـــا عــلا وأظلّ فهو سمـــاء،
وأرزاق النّاس مجتمعين ليست إلا صفحة في كتاب
الرزق الكبير الذي خطّه الـــرازق!
فإذا كنا سبعة مليارات إنسان،
فنحن الأمـــــة الأقــل عــدداً بين سكّان هذا الكـــوكب،
مقابل كلّ إنسان يقطن هذه الأرض ما يزيد على ألف
نملة!

﴿ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾

إلاّ للحصر،
كل الذين يسوقون رزقاً لغيرهم ليسوا إلا أسباباً،
يسقونه بالكم والكيـــف الذي كتبــه الـــرازق
الحقيقــي، الملائكة التي تسوق المطر، لا تُنزل قطرة
في حقل لم يأذن سبحانه أن تنزل فيه!
والصدقة التي تضعها في يد فقير، هي رزقه وضعها
الله في جيبك !

كلّ شيء مكتوب بدقة، فاستريحوا!

﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾

هذا هو المعيار عند الله، لا عند النّاس!
نوح كذّبوه،
وإبراهيم رموه في النّار ليحرقوه،
وموسى تـآمروا بـــه ليقتلــوه،
وصالــح أتعبوه،
وشعيب عصوه،
ويحيى قتلــوه،
وزكريا بالمنشار نشــروه،
وعيسى أرادوا أن يصلبوه،
ومحمد ﷺ كلّ هـــؤلاء؛
بمكـــة كذّبـــوه،
وبالطّائف رجموه،
وعند بيته كمنوا ليقتلــوه،
وفي طريق هجرته لاحقوه،
وفي أحد وبدر قاتلــوه،
وفي الخندق حاصروه،
وبقطعة لحم سمّمـــوه،
فماذا تنتظر أنت من النّاس؟!

الناس إذا تصدّقت قالوا: يُرائي!
وإذا أمسكتَ قالوا: بخيل!
وإذا نصحتَ قالوا: يُعيب!
وإذا سكتَّ قــالوا: جبان!
وإذا تاجرت قالوا: طــالب مــال!
وإذا جلست في بيتك قالوا: عاطل!
إذا انتقدتَ قــالوا: يتبع عيوبنــا!
وإذا صمت قالوا: أمــرنا لا يعنـيه!
هؤلاء هم النّاس،
فيهم الثمين وأكثرهم غث،
فكن أنت!
صحيح أن الذي يراقب الناس يموت هما،
ولكنّ الذي يسمح لهم أن يُسيّروا حياته يموت همًّا
وكمداً وحزناً،
رضاهم غاية لا تُدرك!
وتذكّر دومًا: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

التّوّابــون: صيغة مبالغـــــة،
وصيغ المبالغة أسماء تُشتقّ من الأفعال للدلالة على معنى اسم الفاعل بقصد المبالغة،
وهنا تفيد كثرة القيام بالأمـر،
أي أنّهم يُكثرون من التّوبـــــة!
ولمّا كانوا كثيري التّوبة اقتضى بالضرورة أن يكونوا كثيري الخطأ!
وانظر لرحمته في دقة تعبيره سبحانه،
لم يقـــل يقبـــل التّوّابيـن،
ولـــم يقل يغفـر للتّوّابيـن،
ولم يقل يعفو عن التّوّابين،
وإنّما قـــال يحبّ التّوّابين!
أجل يحبّ أولئك الذين يخطئون، ثم يأتونه مستغفرين!
يحبّ أولئك الذين يعصونه نهاراً، ويعـــودون إليـه ليلاً!
ولم يخبرنا سبحانه أنّه يحـــبّ التّوّابين لنتمـــادى في المعصية!
ولكنّه لا يريد للشّيطـــان أن يقـــف بيننـــا وبينـــه،
يريد أن يخبرنا أنّ الذّنب مهما عظُم، فرحمته أعظم!
وأنّ الزّلل مهما تكرّر، فلا يملّ سبحانه من العفو حتى نملّ من العودة إليه!

لا

تختلِطْ بأكملك بالناس

اُتركْ شيئاً منك لنفسك

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾

سَلْ نوحاً عن ألف سنة قضاها في الأرض،
يخبركَ أن العمـــرَ قصير مهـما طـال!
سَلْ سُليمانَ عن الغنى وقد ملكَ الأرضَ من مشرقها
إلى مغربها، بجنّهـا وإنْسِهـا ودوابهـــا،
يخبركَ أنّ الإنســان فقير مهمـــا مـلكَ!
سَلْ داودَ عن القوة وقد أُلينَ لـه الحـديد،
يخبركَ أنّ الإنسان ضعيفٌ مهـما قـويَ!
سَلْ فرعونَ عن البحر إذ أطبـق عليـــه،
يخبركَ أن طعم الملح أزال حلاوة المُلك!
سَلْ النمـرود عن بعوضـــةٍ في رأســه،
يخبركَ أن ذُلّ النّعال لم يترك لـه عـزاً!
سَل الطغاةَ والعصاةَ على حد سواء عن أبلغ درسٍ
خرجوا به من الحياة،
يخبروكَ جميعًا: لا تركن إلى الدّنيا!

العلـــمُ الصحيحُ يستحيلُ أن يتَعارض مع الدّين الصحيح!

لقد غيّر العِلمُ رأيــه أكثر من مرّة في قضية واحدة،
ولكنّ هـذا الكتـاب بين أيدينا على حـاله منذ ألـفٍ وأربعمئة سنة،
بل إنّ العلم كلّما تقدّم وتطوّر، أكّد صدق هذا الكتاب وعظمته،
رغم أنّه غنيّ عن العلـم والعلمـاء ليكـون صـادقاً !
مساكينُ أولئك الذين لا يؤمنون إلا بما تراه حواسهم!
مساكينُ أكثر أولئك الذين يؤمنــون بغيبيات العلـم، ويكفرون بغيبيات الدّين!
مساكين يكفرون بالله لأنهم لا يرونه، ويؤمنون بالأشعة فوق البنفسجيّة وهم لا يرونها!
مساكين يكفرون بالملائكة لأنها لا تُرى، ويؤمنون بالأشعة تحت الحمراء وهي أيضاً لا تُرى!
مساكين ينكرون سرعة البُراق، ويؤمنون بسرعة الضوء!
وينسون أنه عندما كان علمهم يقول أنّ الأرض تقف على قرن ثور،
كان قرآننا يقول ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

ينسون أنه عندما كان علمهم يقول أنّ الأرض مسطّحة كان قرآننا يقول ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾!

وعندما كان علمهم مليئاً بالخزعبلات والسّحر، كان قرآننا يحدثنـــا عن الأجنّة ومــواقع النجــوم!

الدين الذي جعل العلم فريضة، يستحيل أن يقف بوجه العلـــم، لأنـــه وقتــذاك سيقـــف ضــد نفســـه! ولكنّه ضد ذاك العلم الذي لا يعترف بسلطان الله على الكون، العلم الأحمق، الذي يرى أن الكون خلق نفســه لمجرد أنه لا يملك تفسيرا آخر غير تفسير العاجزين هذا!

أسطع حقبة في عُمر العلم هي تلك التي استلم فيها المسلمــون ريادتـــه، ذلك أنه اقتــرن بالايمـــان،

فالعلم بلا إيمان، لا يلبث أن يصير إلحاداً!

والايمـــان بلا علــم، لا يلبث أن يصير خــــرافة!

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

هذه المرأة إحدى أعظم المؤمنات في التاريخ،
رغم أنها كانتْ زوجة أحد أشهر الكفّار في التاريخ !
وهي إحدى أربع نساء بلغنَ الكمال !
فقد قال سيد الناس ﷺ:
" كمُلَ من الرّجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع، مريم ابنة عمران، وآسيا زوجة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد"
الطّريف في الآية، أنّ فيها إحدى أشهر فرَاستين في التاريخ !
الطّريف أكثر أن الفَراستيْن كانتا لنساء!
والطّريف الأكثر أن الفراستيْن كانتا في شخصٍ واحدٍ هو موسى عليه السّلام:
أما الفراسة الأولى فقول آسيا ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ . .
فكان موسى عليه السلام ابنها، ونبيّها، الذي آمنت به وأوصلها إلى الجنة، وليس بعد الجنّة منفعة !
أما الفراسة الثانية فكانت لابنة الرجل الصالح، حين قالت له ابنته بعد أن سقى لها ولأختها ماشيتهم
﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

فكان موسى؛ نعم القوي، ونعم الأمين!
قدر الله نافذ لا محالة،
انظروا إلى فــرعــون،
ذبح آلاف الأطفال قبل ميلاد موسى؛ لأن المُعبّرين أخبروه أن تأويل رؤياه ولدٌ لبني إسرائيل يكون زوال ملكه على يديه!
ولكنّه في المقابل رقّق قلب آسيا على موسى عليه السّلام،
فتُربي في بيت فرعون!
ذبح آلاف الأطفال خوفاً من مجيء الطفل صاحب الرؤيا،
ولمّا جاء صاحب الرؤيا ربّاه في بيته!
مــا كتبــه الله واقــع لا محــالــة،
وما قدّره كائن لا شك،
ولكنّه سبحانه جعل هذه الدنيا دار أسباب،
نأخذ بالأسبـــــاب لأنها واقعة في قــدره،
ولكنّنا لا نجعل يقيننا على السّبب بل على من سبّبها!

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾

استيقظ بنو إسرائيل يوماً على جثّة مُلقاة أمام أحد البيوت، فتنازعوا بينهم أمره،
وتراشقوا التُّهم هذا يلقيها على ذاك،
وذاك يلقيها على ذلك،
حتّى قرّروا أخيراً أن يحتكموا إلى موسى عليه السّلام،
فأمرهم أن يذبحوا بقرة، ويضربوا الميت بلسانها،
فيمتثل حياً، ويُخبر عن قاتله ويموت مجدداً!

تأمّل نصّ الآية:

بقرةٌ، هكذا نكرة،
أي أن أيّة بقرة تفي بالغرض،
ولكنّ اليهود ككلّ زمان ومكان، يعبدون المال،
فجاؤوا إلى موسى عليه السّلام يسألونه أن يُبين لهم بعض صفاتها،
فقال لهم: لا هي كبيرة، ولا هي صغيرة،
وترك لهم الباب واسعاً، ولكنّه أضيق قليلا مما كان،
ولكنهم أبوا إلا أن يضيّقوه على أنفسهم أكثر،
فسألوه عن لونها،
فأخبرهم أنها صفراء فاقع لونها،
فضاق الباب أكثر،
بقرة صفراء: لا كبيرة ولا صغيرة!

فأرادوا أن يضيّقوه أكثر،
ورجعـــــوا يســـألون..
فأخبرهم أنها بقرة معززة مكرمة عند أصحابها، لا تستعمل في الحراثة ولا السقاية!
فبحثوا عن بقرة صفراء لا صغيرة ولا كبيرة معززة مكرمة،
فما وجدوها إلا عند من أبى أن يبيعها إلا بملء جلدها ذهباً لمّا علم حاجتهم إليها،
فدفعوا الذهب وفارقوه كمن تفارق روحه جسده،
وذبحوها وضربوا الميت بلسانها،
فقام من فوره وأخبر أن قاتله هو ابن أخيه ووارثه الوحيد الذي استعجل موته لينعم بالثروة من بعده!

الدّرس الأول :
إن الله عندما يسكت عن أشياء فإنه يسكت عنها رحمة بالناس لا عن نسيان!
ما أراد الله أن يُؤتى به على نحو محدد فصّل فيه،
وما شـــاء أن يتركــه عامــــاً قالـــه مجمـــلاً،
فـلا توسّعوا ضيّقاً،
ولا تُضيّقـوا واسعـــاً!

الدّرس الثاني :

هؤلاء هم اليهود أكثر الناس أنبياءً وأقلهم إيماناً،
يعبر بهم موسى عليه السلام البحر، وقبل أن تجفّ
أقدامهم يقولون له لما رأوا قومًا يعبدون أصنامهم:
﴿ اِجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَة ﴾

يرفع الله لهم الجبل ظلة فيجحدون،
يمطر عليهم ذهبًا فيكفرون،
يرسل لهم طالوت، فيتخلفون عنه إلا قليلاً،
يبعث لهم الأنبياء تترا؛ ففريقاً يقتلون، وفريقا يُكذّبون!

الدرس الثالث :

ما كان لك سيأتيك رغم ضعفك،
وما لم يكن لك لن تناله بقوتك !
فكّرَ، وخططَ، وقتلَ لأجل المال، ثم حُرم منه!
وذهب المال لمن لم يكن ينتظره لأنّ الله من البدء قد
كتبه له !

الدرس الرابع :

نجمع المال من حلال وحرام، ثم نتركه خلفنا للورثة
يتمتعون به ونُحاسب عليه وحدنا !

المال عجلة الحياة، ولكنّه ليس الحياة كلها!

وإنّ الله قد قسم كل شيء بالعدل بين الناس،
وقليلٍ من الناس من أوتي كل شيء!
تجد غنياً، حرمه المرض أنواع الطعام على كثرة ماله،
وتجد فقيراً يشتهي ولا يجد،
الأول أعطي المال، والثاني أعطي الصحة.
تجد شخصاً حُرم الأولاد وأعطي العلم،
وآخر أعطي الأولاد وحُرم برّهم!
هكذا هي الدنيا لا تكتمل!
ولكننا نحن البشر بما نفقد لا بما نجد،
يظن أحدنا أن أهم ما في الدنيا هو ما حُرم منه،
وننسى أنها ليست إلا دار زراعة وأن الله لن يسألنا عما حرمنا،
بل سيسألنا ماذا فعلنا بما أعطانا،
سر السعادة أن نرضى،
الخوف من الحاجة حاجة أخرى،
لو نظرنا لما في أيدينا، لما أسعفنا الوقت أن نتأمل مما حرمنا منه!
ولكن نحن هكذا ننسى ما في أيدينا، وننظر لما هو في أيدي الناس!
البيوت أسرار
فما أدراك من له مال طائل كيف يعيش؟
وما أدراك أن من له زوجة جميلة أنّه سعيد؟
السعادة ليست بما نملك بل بفن إدارته والتمتع فيه!

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى
قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى﴾

الشّجـاعـة ليست أن لا تخـاف،
بل أن تعرف كيف تكتم مخاوفك !

علينا أن لا ننسى أن الناس مهما بلغوا من رفعة فإنهم نهاية المطاف بشر

هذا موسى عليه السلام، يخـاف!

وهذا نوح عليه السلام يتقطع قلبه على ابنه الكافر ويقول: إنه من أهلي !

وهذا إبراهيم عليه السلام يخبر ابنه برؤياه: يا بُني !

وحين جاءته الملائكة بهيئة بشر، ووجد أيديهم لا تمتد إلى طعامه، خاف، فطمأنــــوه!

وحين أخبروه أنهم في طريقهم لخسف قرى الظالمين تذكّر أقرباءه ورحمه فقال: إنّ فيها لوطاً!

وهذا يعقوب عليه السلام لا يطيق فراق ابنه الأثير يوسف ويقول: "إنّي ليَحزنني أن تذهبوا به"

وهذا محمد ﷺ يبكي يوم موت ابنه ويقول: إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون ولكنا لا نقول إلا ما يرضي الله

النّاس مهما بلغوا من الرّفعة وفاقوا البشر العاديين فلأنهم صبروا وجاهدوا أنفسهم

ولكن هذا لا يعني أنهم ليسوا بشراً مثلنا
يحبون ويكرهون ويغضبون ويرضون
ولهم شهـــوات وعندهـــم أحـــلام
المتسوّل يفرح بالكلمة الحلوة كما يفرح بالدرهم لأنه إنسان والعاملة المنزلية تفرح بالمعاملة الحلوة لأنها إنسان ولأن الطيبة في الغربة وطن !
وعامل النظافة يفرح بالابتسامة لأنه إنسان ولأن ابتسامة في وجه إنسان قد تصنع يومًا جميلاً رغم كل شيء، الناس: كريمهم ووضيعهم،
غنيّهم وفقيرهم،
ذكرهم وأنثاهم،
مهمـــا اختلفت أدوارهـــم في الحيـــاة هـــم بشـــر!
الصالحون ليسوا مجرد مصاحف تمشي على الأرض،
والعمـــــال في المصـــانع ليسوا آلات من لحـــم ودم،
نحن أيها الناس ناس !

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُون ﴾

هذا هو شأن المجتمعـات الفـاسدة منذ آلاف السنين،
إذا لـم تجد للمصلحين خطيئة تُعيّرهم بهـا،
عيّرتهـم بأجمـل مـا فيهـم!
وجريمة آل لوط أنهم أناس يتطهـرون!
بعض الأشياء لا تتغيّر على هذا الكوكب،
يختنقُ الفاسدون من الصالحين لأنهم يذكّرونهم بنقصهم، لهذا تريد الزانية لو كل النساء زنين فالعفة صفعة شديدة على وجهها!
ويريد السارق لو كل الرجال سرقوا، فالأمانة سوط حار على ظهره!
ويريد المرتشي لو كل الموظفين ارتشوا، فالحلال هو الذي يجعل اللقمة مرة في فمه!
ويريد العاق لو كل الأبناء عقوا، فالبِرّ درس قاس يتلقاه!
لأنهم عاجزون عن الارتفاع، يريدون للآخرين أن ينحدروا!
إنهم يتهامسون بالسوء عنكم، وفي قرارة أنفسم يتمنون لو أنهم مثلكم!
لا تصدقوهم حين يقولون عن المحجبة مُعقدّة،
وعـن الملتـزم متـزمـت،

وعن الصادق جاهل بالأتكيت،
وعن العفيف جبـان،
وعن الأميـــن لا يعـــــرف من أن تُـؤكـــل الكتـــف،
في قرارة أنفسهم يحترمونكم مهما أظهروا العكس،
فلا تتغيّروا!

﴿أنا أكثرُ منكَ مالاً﴾

إن الله يعطي الدنيا لمــن أحبّ من عبـاده ولمن كـره،
ولكنّه لا يعطي الدين إلا لمن يحب،
أعطى الدنيا كلها لسليمان عليه السـلام وذي القرنين،
وأعطـــاها لقـــارون والنمـــرود،
ولو كانت معياراً للتمايز ما ساوى فيها نبياً وطـاغيـة !
أفقر النّاس هم أولئك الذين لا يملكون إلا المــــال !
أولئك يظنون أن كل شيء قابل للشراء بما في ذلك الجنّة، ويعتقدون أنهم أغنى آخرة لأنهم أغنى دنيا !
المال عجلة الحياة وليس الحياة،
وسيلة وليس غاية،
إذا وُضــع تحت القدمين رفــع،
وإذا وُضع فـــوق الرأس خفـض،
وامتلاك المال لا يقدح في الدين؛
على العكس، نِعْمَ المال الحلال في يد العبد الصالح.
المهم أن يكون المال في يدك لا في قلبك !
المـــال يجعل الحيــــاة أكثر رفاهيــــة،
ولكن أجمل ما في الحياة هي أشياءلا تُشترى !
المال يشتري دواءً ولا يشتري صحة،
يشتـــري سريراً ولا يشـتري نـــومــاً،

يشتري ديوان غـــزل ولا يشتري حُبّاً،
يشتري غانية ولا يشتري حبيبة،
يشتري كتاب نُكات ولا يشتري ضحكة من القلب،
يشتري روضة أطفال ولا يشتري طفلاً،
يشتري مكتبـة ولا يشتـــري ثقافــــة،
يشتري سـيارة ولا يشتــري أقـداماً،
يشتري نظـــارة ولا يشتـــري أعينـاً،
يشتري متزلفين ولا يشتـري أصدقاءً،
الفقير والغنيّ، لا يأكل أحدهما أكثر من سعة بطنه،
ولا يلبس أكثر من ثوب واحد وإن اختلفت المـــاركة،
ولا ينتعل أكثر من حذاء واحد وإن اختلفت النوعية،
اجمعوا المال ليخدمكم لا لتخدموه!
اجعلوه عبداً لا سيداً،
تابعاً لا معبوداً،
ثمّ سيّروا حياتكم به، ولا تجعلوه حياتكم!
وتذكروا دوماً لديكم الكثير مما لا يُشترى!

﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾

كلبٌ تخلّد في القرآن بسبب الرفقة الصالحة !
فاختر أصدقاءك بعناية كما تختار ملابسك،
الصاحب ساحب!
توشك أن تُغيّر إنساناً للأفضل فيغيّرك للأسوأ،
وإن لم يُغيّرك،
يكفِكَ من شرّه أن تعيّر به!
فالمَرءُ عند الناس على دين خليله،
كانت العرب تبحثُ عن الرفيق قبل الطريق!
وتبحثُ عن الجار قبل الدار!
الصديق الصالح أحد متع الحياة،
بئر عميق تودع فيه سرك،
وعقل ناضج تشركه في أمرك،
وكتف حنون تستند عليه من همّك،
ويد حانية تزيل عن كاهلك ما ألمّك،
كلب تخلّد لأنه مشى في رفقة صالحة،
وحوت تخلّد بحمل يونس عليه السلام،
ونملة تخلدت بابتسامة سليمان عليه السلام،
وهدهد تخلّد لأنه كان ساعي بريد،
ونحن أولى بهذا!

﴿ وعَاشِرُوهُنَّ بالمَعْرُوف ﴾

المعروف كلمة فضفاضة يدخل فيها كلّ شيء حسن!
ابتســـامتك في وجهها، معـــروف
وكلمـــة حلـــوة، معـــروف
وضمة إلى صـدرك، معـــروف
وهدية بمناسبة أو دونها، معروف
أن تسمـــع شكواهـــا، معـــروف
وأن تهتم لصحتهـــا، معـــروف
وأن لا تمنعها عن أهلها، معـروف
أن تحتـــرم رأيهـــا، معـــروف
وأن تحترم هوايـاتها، معـــروف
وأن تعينها في شؤون بيتها وأولادها، معروف
وأن تعينها في شؤون دينها، معروف
أن تحتمل عثراتها، معروف
وأن تعطف عليها، معـروف
أن تراعيها في مرضها، معـــروف
وأن تحتمل تقلب مزاجها، معروف
وانظر لدقة التعبير: "وعاشروهن بالمعروف"
ولم يقل بالعُرف،
ذاك أن المجتمعات في الغالب لها معايير عوجاء،

تقتل حنان الرجل بـاسم قــوة الشخصيّة،

تجعله جافاً باسم المحافظة على الرجولة،

تجعله ظلفاً وقاسياً باسم فلان يحكم بيته،

بعض تصرفاتنا ليست إلا أمراضاً نفسية تعتّقت ردحاً من الزمن فصارت عادات!

الرجولة ليست أن تفعل ما يفعله الناس

وإنمــا أن تفعـل الصــواب!

لا يكن أحدكم إمّعة إذا صلح الناس صلح، وإذا فسد الناس فسد!

كان سيد الرجال ﷺ في خدمة أهله،

وكــان أكثر النـــاس تبسمـــاً في بيته،

وكان لا يتحرج أن يذكر أنه يحب امرأته وقد قال عن خديجة تلك امرأة رُزقت حبّها

وكان من آخر وصاياه: استوصوا بالنساء خيراً!

﴿ وبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِين ﴾

خَلَقَ اللّهُ تعالى آدمَ عليه السلام من طين،
وخَلَقَ حوّاءَ من ضلع آدم،
فإذا كانتْ حوّاءُ جزءاً من آدم، فإن آدمَ هوَ حـوّاءُ كلّها!
مهما أحبّ الرّجلُ المرأة فإنه يجعلها جزءا من حياته
كما كانتْ منذ البداية جزءا من كيانه،
أما المرأة، إذا أحبّت الرّجل فإنها تجعله حياتها كلها
كما كان منذ البداية كيانها كلّه!
النّساءُ أصدقُ في الحبّ من الرّجال،
وهذا ليس ذما في الرجال،
وليس مدحا في النّساء !
إنها الفطرة التي فطر الله عليها النّاس لتستمر الخليقةَ!
إن أصل الخَلق لا فكاك منه في الطِباع!
فقد خلق الله آدم من تراب،
والتراب هو الرحم الذي تولد منه الأشجار والنباتات،
لهذا يجد الرجل قيمته في العمل والإنتاج !
ولكنّه سبحانه خلق حواء من ضلع في آدم ناحية القلب،
لهذا فإن علاقة المرأة بالإنتاج علاقة بعيدة نوعا مـا،
وهي عندما تُنتج فإنها لا تحقق ذاتها وإنما تحقق بعضا من ذاتها،
وإنما تسعد بما تُنتج لأنها تُشبع بعض التراب التي هي جزء الجزء منه،

ولكنّها لا تجد نفسها إلا حين تُحب،
فقد قُدّتْ من قطعة قـــرب القلب!
المرأة تجد نفســها زوجة حنـــون،
وأمًا رؤوم،
لهذا نجد اللهفة للأمومة عند النساء أشد من اللهفة
للأبوة عند الرّجال!
لأن الأبوة حلقة من حلقات الانتاج الكثيرة في حياة الرجل،
أما الأمومة فهي أرقى وظائف الحب،
وبدونها تشعر المرأة بنقص عاطفي
لأن هذا يُحدث خللاً في وظيفتها الكبرى التي خُلقتْ لها!
لهذا لا مانع عند الرّجل أن تساعده المرأة في أعباء
الحياة الماديّة،
ما دامتْ لا تأخذ وظيفته!
ولكنّه يتحرج أن يكون عالة على امرأة،
ذاك أنه كائن تُرابيّ!
أما المرأة فلا تتحرج أن تكون مسؤولة من الرجل،
يقدم لها احتياجاتها الماديّة،
إنها لا تشعر بالعجز والنقص أبداً،
ذاك أنها كائن قلبيّ!
على المرأة أن تُقدّر ما ينتجه الرجل مهما كان ضئيلا،
لأنها بهذا تساعده على تحقيق ترابيته!
وعلى الرجل أن يُرخي للمرأة عنان قلبها ويدللها لتُطلق
أنوثتها، لأنه بهذا يساعدها على تحقيق قلبيّتها!

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

صعد إلى السماء السابعة ثم عاد إلى الأرض،
يخصفُ نعله، ويحلبُ شاته،
ويأكل مع المساكين،
هكذا هم الكبار كلمــــا ارتفعوا تواضعــوا !
يخرج مع أصحابه فيقرروا أن يذبحوا شاة،
يقول الأول: أنا أذبحهــا.
يقول الثاني: أنا أسلخها.
يقول الثالث: أنا أقطّعها.
يقول هو: وأنا أجمع الحطب.!

هكذا هم الكبار يرفضون أن يتميّزوا !

بتصرّفه مال كثير،
يحثوه على النّاس حثواً وينسى نفسه،
فيموت ودرعه مرهونة عند يهــوديّ،
هكذا هم الكبار يأبون إلا أن يتعفّفوا !
يؤمُّ النّاس، ويسجد فيحبو الحسنُ بن علي بن أبي طالب، ويصعد على ظهره،
فلا يرفع رأسه حتى ينزل حفيده،
ويصلي مرة أخرى، فيسمع بكاء طفل عند صفّ النساء،

فيخفّف صلاته ويختصر قراءته،
كي لا يشغل قلب أم على طفلهـــا،
هكذا هم الكبار وُجدوا ليَرحموا !
ينهى أصحابه عن الوقوف له تعظيماً،
ويدخل عليهم مرّة، وبدون شعور منهم يقفون،
فيمتعض، ويرى حسّان انزعاجه بادٍ على وجهه،
فينشده :
وقوفــي للعزيـــز عليّ فــرضٌ
وترك الفرضِ ما هو مستقيمُ

عجبتُ لمن له عقلٌ وفهمٌ
يرى هذا الجَمال ولا يقومُ

فيبتسمُ ويرضى
هكذا هم الكبار إذا اعتُذِر إليهم قبلوا !

لا بأس أن يعمل
المــرءُ لدنيــاه
ولكـــن دون أن
ينسى آخــرتـه
ولا بأس أن يجعل
بيتــه جميــلاً
ولكـــن دون أن
ينسى قبــره !

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

يُسكّنُ قـلـوب محبّيــه،
ويُهدّىء أشواقهم للقياه،
يطيّب خـــواطـرهـــم،
يُسلّيهم بما يخاف منه الناس عادة !
فكأنه يقول لأحبابه: لا يفصلكم عني إلا الموت !
هذا لا يعني أن الإنسان لن يكون مؤمنا إلا إذا أحبّ أن يموت !

حب الحياة غريزة بشريّة،

والمؤمن والكافر في هذا سواء..
وقد سألت عائشة رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى:
" كرهوا لقاء الله فكره الله لقاءهم "
فقالت له وأيُّنا يحب الموت؟
فقال لها: ليس هذا المقصود يا عائشة!
وأخبرها أن الإنسان يرى مقعده من الجنة أو النار قبل خروج الروح، وأن الكافر إذا رأى مقعده كره لقاء الله، فكان سبحانه أشد كرها للقائه!

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـٰؤُلاءِ شَهِيداً﴾

أعظم شاهد،
في أعظم قضية،
في أعظم محكمة،
عند أعظم قاض،
إنها قضية الوُجود الكُبرى: إفراد الله تعالى بالربوبية والألوهيّة!
فلأجلها خلق السماوات والأرض،
وأرسل الرُسل،
وأنزل الكُتب،
ونصب الموازين،
وأعدّ الحساب،
هي علة وجود الجن والإنس،
وإن شئت فاقرأ قوله:
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾
ولكنه من رحمته جعل الحياة في طاعته عبادة،
فتحصيل الرزق بالحلال عبادة،
واللقمة يرفعها الرجل إلى فم امرأته صدقة،
والإحسان إلى الجار عبادة،

وإماطة الأذى من الطريق صدقة،
وابتسامة في وجه إنسان صدقة،
بل وفي بضع أحـدكم صدقـــة،
فاستغربوا وسألوه ﷺ: أيَأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر؟
فقال لهم ﷺ: أرأيتم إن وضعها في غير مكانها أفلا يكون عليه وزر؟
فكذلك إن وضعها في موضعها فله أجر!

أعظم شاهد:
يقول ﷺ لابن مسعود: اقرأ عليّ!
فيقول له: يا رسول الله، أأقرأه عليك وعليك أُنزل؟
فقال ﷺ: إني أحـــب أن أسمعـــه من غيـري!
فقرأ ابن مسعود في سورة النساء
فلما وصل إلى هذه الآية فاضت عيناه بالدمـــوع،
وقال ﷺ لابن مسعـــود: حسبـــك! أي كفـــى!
سيشهد كل رسول في المحكمة الكبرى أنه قـد بلّغ،
وستأتي الشهادة الكبرى من الكبير أخلاقاً ومقاماً،
سيقول: اللهم قد بلّغوا،
ما أعظمه!
هذا خطاب تشريف، فلا يَرى فيه لدماثة أخلاقهﷺ
إلا خطاب تكليف، **فيستشعر عظم الأمر ويبكي!**

أعظم محكمة:

هناك تنطق الجُلود بما أحسّتْ،

وتتكلـــم الأبصـــار بمـــا رأتْ،

وتشهد الأرجـــل بمـــا مشـــت،

وتعترف الأيدي بمـــــا بطشتْ،

هناك تُؤدى الحقوق،

لا يوجد محام يقلب الحــق باطــلاً،

ولا قضية تُغلقُ لعدم كفاية الأدلـــــة،

هناك كل يأخذ ما له ويدفع ما عليه،

حيث لا درهم ولا دينار،

ولن تنفضَّ المحكمة حتى تقتص الشاة الملحاء من الشاة القرناء!

حتى الشاة التي استقوت بقرنيها على شاة ليس لها قرون ستقف في القصاص: نطحة بنطحة!

أعظم قاض:

جبّار السماوات والأرض ينبري للحساب،

وما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان،

سيقول له ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

فلنكتب ما يسرُّنا غدًا أن نقرأه بين يديه!

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

بالمـــاء انتقـم لنـــوح !

وبالنار أثبتَ صِدق إبراهيم !

وبالحـــوت حفـــــظ يونس !

وبالضفادع والقمل والدم دافع عن موسى !

وبالعنكبوت خبّأ محمدًا ﷺ !

بالبحر أغـــرق فرعـــون !

وبالبعوضة أذلّ النمـــرود !

وبالجِرذان هدّ سدّ مأرب !

وبالأَرَضَة حشرة لا تكاد تُرى بالعين المجرّدة نقضَ وثيقة قريش !

على أبواب مكّة عصى فيل الحبشة !

وعندما لم يكن لأهل البيت جيش،

كان لرب البيت جيشه !

خلّوا السبيل بين أبرهة والبيت والعتيق،

ووقف عبد المطلب بعيداً، سيفُه في غمده، وأشهَرَ الدعاء !

"اللهم إنّ العبد يمنعُ رحله فامنعٍ رِحالك!

لا يغلبنَ صليبهم ومحالهم عذراً محالك!

إن كنتَ تاركهم وقبلتنا، فأمر مـا بدا لك

فاستجاب وأرسل أبابيله

سبحانه يُجنّد الماء والنار والبعوض والجراد والقمل
والضفادع والحيتان والأرضات والجرذان
والطيور الأبــابيل
هذا الكون جيشــه
وكل من فيه جنده
يقرع طبول الحرب على أعدائه بأضعف مخلوقاته
وأمره في الجبابرة كُن فيكون !

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

امرأتان من مصر تربى في قصر كل منها نبي:
الأولى زليخة امرأة العزيز؛ تربى في قصرها يوسف عليه السلام.
والثانية آسيا امرأة فرعون؛ تربى في قصرها موسى عليه السلام.
اجتمعتا في الجاه والسلطان والعز،
وتفرقتا في التقوى والإيمان والبر،
كانت زليخة زوجة عزيز مصر؛ الرجل الثاني في الدولة حسب النظام السياسي في دولة الفراعنة، وكانت آسيا امرأة الفرعون؛ الرجل الأول في الدولة حسب النظام السياسي لمصر القديمة، والإله حسب النظام الديني!
أي أن آسيا كانت أعظم جاهاً وسلطاناً من زليخة وإن عاشتا في زمنين مختلفين
فيوسف كان قبل موسى بمئات السنين، وكذلك كانت زليخة قبل آسيا!
كلاهما ربّت نبياً في قصرها منذ نعومة أظافره حتى استوى رجلاً سوياً!

زليخة ربت يوسف صبياً قبل أن يبلغ العاشرة، بعد أن اشتراه العزيز، وأهداها إياه
وآسيا ربت موسى منذ اليوم الأول لولادته، بعد أن أوحى الله إلى أمّه أن ترضعه، وتضعه في صندوق وتلقيه في النيل!
زليخة غلبت شهوتها على أمومتها، فأرادت يوسف كما تريد المرأة زوجها،
وآسيا غلبت أمومتها على ما عداه، وأرادت موسى كما تريد الأمهات الأولاد،
تحيطه بالرعاية والاهتمام وتحميه بأجفان العيون
وتضمه بحنان القلب!
زليخة ألقت يوسف في السجن،
وآسيا منعت عن موسى الذبح!
زليخة أرادت الدنيا،
وآسيا أرادت الآخرة!
زليخة لم تؤمن بيوسف إلا بعد أن بلغت أرذل العمر، فصارت عجوزاً ذليلة بعد أن فقدت زوجها ثم فقدت عزها ومالها ثم بصرها!
آسيا آمنت بموسى منذ اليوم الأول الذي دعاها فيه إلى الله!
زليخة كانت شهوتها هي التي فرّقت بينها وبين زوجها،
وآسيا كان إيمانها هو الذي فرّق بينها وبين زوجها!

زليخة مات زوجها وهو عليها غضبان،
وآسيا ماتت وربها عليها راضٍ!

كانت تؤمن أن العز الحقيقي هو عز الآخرة لهذا كانت تدعو ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾
فلما عرف فرعون بإيمانها، صَلَبها!
وكانت وهي تودع الحياة وروحها تفارق جسده،ا تبتسم!
لأنها كانت ترى بيتها في الجنة!
المال لا يُفسد الإنسان،
والفقر لا يصلحه !
وليس مهمّاً مع من يعيش الإنسان، بل كيف؟!
فالمرأة التي كانٍ زوجها يقول:
﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾
كانت تسجد صباح مساء وتقول: سبحان ربي الأعلى!
وليـــس مهمًّـــا أين يعيش الإنســـان، بل كيـــف؟!
كانت آسيا تعيش في قصر وقلبها معلّق ببيت في الجنة!

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

إن الله قَسَم الجمال بين الناس، كما قسم الأرزاق!
فمــن أغنــاه، فعــن فضـــل منـــــه!
ومن أفقره، فليس عن فقر منه سبحانه!
ولكن كلّ شيء عنده بقدر!
وكذلك الجمَال،
فمن خَلَقه جميلاً، فإنما هو نقطة في بحر إبداعاته سبحانه، ومن خلقَــه أقلّ جمــالاً، فليس عن عجـــز منــه، ولكنّ كلّ شيء عنده بقَدَر!
فإذا غرّك جمالك، فتذكّر أنّ شخصاً عاش يوماً على هذه الأرض كان جميلاً حدّ الخيال، جميلاً إلى درجة أن تقطع النسوة أيديهنّ وهُنّ ينظرن إليه!
لو أنّ زليخة وحدها قطعت يدها، لكانت امرأة فُتنتْ برجل!
ولطالما كان الجَمال نسبياً!
فما تجده جميلاً، قد يراك غيره عادياً،
أمّا أن تقطع كل النساء الحاضرات أيديهنّ وهنّ لا يشعرن، فهذا يعني أن جمال يوسف كان متّفقاً عليه!
كان بهيّاً حدّ الفتنة،
جميلاً حدّ الذهول،
أنيقاً حتى يُشكّ في آدميته ﴿ مَا هَذَا بَشَراً ﴾

ثم ماذا فعل هذا الجميل البهيّ؟
كـان بهياً بأخلاقه قبل وجهــه،
جميلاً بقلبــه قبـــل مظهــره،
وهو في السجن، يطلبون تأويل رؤياهم لأنه من المحسنين!
وهو عزيز مصر، يطلبون صدقة لأنه من المحسنين!
لم تغيّرة الأماكن، ولــم تبدّلــه المنـــاصــب!
يطوف على الحقول ويشــرف على الزراعـــة،
يبني أهراءات القمح، ليحفظ محاصيل الناس،
ويحمل على عاتقه إطعام أمة في سبعٍ عِجاف !
وهذا هو الجمال الحقيقي!
ومن رحمته سبحانه عندما فاوَتَ في الجَمال بين النّاس، فاوَتَ في الأذواق،
فكل جمالٍ مهما قلّ هناك من يستحسنه!
ثمة رجل يرى امرأة ما، أجمل نساء الأرض وهي في نظر غيره عادية!
وثمة رجل مكتمل الرجولة والجمال، في عين امرأة ما وهو في نظر غيرها عـــاديّ!
وثمة شيء اسمه الألفة،
سبحانه لولا اختلاف الأذواق لفسدت السّلع!

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُون ﴾

النّاس توجعهم الكلمة القاسية
كما توجعهم ضربة السّيف !

وتُسعدهم الكلمة الحلوة كما تُسعدهم الهديّة !
كان ينزل عليه الوحي،
وجاءه جبريل وأخذه من مكة إلى القدس ليصلي
بالأنبياء إماماً ويستلم قيادة البشرية،
ثم صعد إلى السماء سماءً سماءً،
بلغ سدرة المنتهى،
ووطأ مكاناً لم يطأه نبي مرسل ولا ملك مُقرّب من قبل!
أعطاه الله نهر الكوثر،
وقرن اسمه باسمه،
وكانت تؤذيه الكلمة القبيحة،
ويضيق صدره بها،
فمن باب أولى أن يتأذّى من هم دونه وتضيق صدورهم،
كل كلام له شِقين :
١. مضمون
٢. أسلوب
فإن كان المضمون جميلاً، فلا تفسده بأسلوب قبيح!
وتذكّر، أنّ الذي قال أنا ربكم الأعلى،
أرسل الله نبياً ليقول له قولاً ليناً!

وإن كان المضمون قبيحًا، فلا يجتمع عليكَ قبيحان:
قُبح المضمون وقُبح الأسلـــوب!

تذوّق كلامك قبل أن تنطقه،

فإن وجدته حلواً في فمك، سيكون هكذا حين يقع في آذان الناس!
وإن كان مُرّاً، سيكون هكذا في آذان الناس،
الحقيقة أغنى ما تكون عن اللفـظ البذيء،
فلا يمكن تحقيق الغايات الجميلة بأساليب قبيحة،
يجب أن تليق الأساليب بالغايات،
لا يوجد حق أكبر من دعـوة نبيّ،
ومع ذلك قال له ربه:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

الكفرُ الصّريح أفضل من الإيمان الكاذب، وفي كلّ شر !

ولو لم يكن النفاق أكبر إثمًا من الكفر الصريح، ما جعل الله المنافقين في أكثر مـراتب النـار عذابا!

وهذا من البداهة بمكان ليُفهم من سياق الآيات،

لم يعرف العربُ النفاق في مكة، أو بتعبير أدق لم يمارسوه،

وهذا عائد برأيي لسببين:

الأول: أن قريشا كانت خالصة في عروبتها، أفصح العرب لِسانا، وأحسنهم مجازا، وأرفعهم نسباً والعنصر العربيّ الخالص عرف رزايا كثيرة ولكنه لم يعرف الجُبن!

وقد ظهر النفاق في المدينة لتعدّد الأعراق والأديان فيها، واختلاف الولاءات السياسية.

فقد كانت المدينة مجتمعاً مفتوحاً للتجاذبات وللصراعات على أشدها لاثبات الذات، وتأكيدها.

فكان الأوس والخزرج واليهود والنصرانية على نطاق ضيّق، مما حدا بتلك القوى أن تمارس السياسة ردحاً من الزمن، وما السياسة إلا فن من فنون النفـاق !

هذا الأمر لم تعرفه قريش، فقد نعمت باستقرار سياسي وتوزيع مناصب القبيلة على مستحقيها فانصهرت القبيلة في بوتقة واحدة ولم تتنافر!

والسبب الثاني:

برأيي أنه لا يقل أهميّة عن الأول،

وهو أن الإسلام في مكة كان ضعيفاً، ومضطهداً، وكانت السلطة السياسية والغلبة الماديّة لدين قريش.

بينما في المدينة انقلبت الأدوار، فقد صار الإسلام هو السلطة والقوى التي لم تنخرط فيه هذه الأقليّة!

لهذا كانت أمام أحد أمرين:

إمّا أن تُظهر كفرها وتسبح ضد تيار المجتمع،

وإمّا أن تُمثّل الإيمان تمثيلاً وهي في الحقيقة تُبطن الكفر،

وهذا الذي كان!

أو أن تقف ضد السلطة فتخسر ما تحاول بنفاقها أن تُحافظ عليه،

فالإنسان لا يظهر عكس ما يُبطن

إلا في حالة الخوف،

وإلاّ فالأصل أن تُعبّر المواقف عن المعتقدات!

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

من خلال ما قرأتُ وسمعتُ واستنتجتُ أرى أن تاريخ البشريّة يتلخّص في عشر مراحل :

١- مرحلة العدم: وتتساوى فيها البشريّة مع كلّ ما في الكون، حيث كان الله ولا شيء سواه !

٢- مرحلة خلق آدم عليه السلام: حيث أمرَ الله سبحانه الطين الميت أن يكون بشراً سوياً فكان!

٣- مرحلة خلق حواء: حيث خلق الله تعالى حواء من ضلع آدم عليه السلام لتسكن إليه، ويسكن إليها، هذه الطريقة المليئة بالحكمة والتي أنيط بها استمرار البشرية!

٤- مرحلة الذرّ: وهي المرحلة التي تتحدث عنها الآية، حيث مسح الله على ظهر آدم عليه السلام، فأخرج منه كل البشر الكائنين إلى يوم القيامة على هيئة النمل الصغير، وأشهدهم على وحدانيته وربوبيته فشهدوا، ثم أعادهم إلى صلبه ليولد بعد ذلك كل إنسان على ميقات لا يُخلفه !

٥- مرحلة الحياة في الجنّة: حيث منّ الله على الزوجين بالحياة في الجنّة، وأباح لهما شجرها كلّه إلا واحدة، فوسوس لهما الشيطان وزيّن، فأكلا منها، وكانت تلك الخطيئة سبباً في النزول إلى الأرض.

٦- مرحلة الاستخلاف في الأرض: وتمتد من نزول آدم وحواء إلى الأرض إلى نفخة إسرافيل الأولى في الصور.

٧- مرحلة البرزخ: وهي حياة الأرواح التي ماتت أجسادها، حيث تكون في نعيم أو عذاب، وتبدأ من لحظة موت كل إنسان وتنتهي بالبشر جميعاً لحظة نفخ إسرافيل نفخته الثانية في الصور، وقيام الناس للحساب.

٨- مرحلة البرزخ الجماعيّ: وهي المرحلة الممتدة بين نفختي إسرافيل في الصور، حيث يترك الله الناس موتى ما شاء له أن يتركهم.

٩- مرحلة الحساب: ويتلخّص بيوم القيامة حيث تُنصب الموازين، وتُقام المحكمة، ويُعرض الناس للحساب عند قاضي السماوات والأرض.

١٠- مرحلة الحياة الأبديّة، إما إلى جنّة وإما إلى نار !

فما الدروس المستفادة من الآية ؟

الدّرس الأوّل :

قضيّة التوحيد هي قضيّة الكون الكبرى، بل قضيته الوحيدة، لأجلها خلق الله الناس، وبعث الرسل، وأنزل الكتب، ونصب الموازين، ونشر الدواوين، وأقام سوق الجنّة والنّار !

قضيّة لا يقبل الله دونها صرفاً ولا عدلاً، ولا درهـماً ولا دينـاراً، ولا صـوماً ولا صـلاة، ولأهميتها جمع النّـاس في صعيد واحد، وأخذ منهم ميثاقـاً غليظاً أنه وحـده سبحانه خالقهـم، ورازقهـم، ومُميتهـم، ومحييهـم، ثم بعد ذلك جـامعهم ليرى ما فعلوا بميثاق أخـذوه، ووعد قطعوه!

الدّرس الثاني :

حين جمع الله تعالى الناس على هيئة الذر
لـم يحدّثهم عن الرزق؛ لأنـه شـأنـه!
ولم يحدّثهم عن الذّرية؛ لأنهـا عطـاؤه!
ولم يحدّثهم عن الأجـل؛ لأنـه قضـاؤه!
وإنما عن التوحيد؛ لأنه شأنهم ووظيفتهم الوحيدة !

الدّرس الثالث :

خلق الله الأرواح البشريّة دفعة واحدة، وحفظها عنده!
فإذا أراد أن يجعل بشراً، أمر الملَك أن يبث الروح في الجسد، ثم يكتب رزقه وأجله ومآله!

الدّرس الرّابع :

خلق الله لكل جسد روحاً واحدة، تسكنه فترة تمتد بين مهمة ملكين: الأول وقت بثها في الجسد حيث يكون الإنسان جنيناً في رحم أمه، والثاني وقت نزعها من ملك الموت إذا انقضى الأجل وطُويَ الكتاب !

الدّرس الخامس :

الأرواح لا تفنى كما الأجساد، فهي محفوظة في عالمها قبل البث في الأجساد،
ومحفوظة في نعيم أو عذاب بعد الموت!
وكل ما يقال عن تناسخ الأرواح والتقمص هو عَبَط فكريّ وتفسير جاهل، الإيمان به كفر بَواح، يتنافى مع صريح القرآن، وصحيح الحديث، وعقيدة المسلمين!

الدّرس السادس :

الإلحاد موضة !
أجل، موضة البشريّة التي تحبّ أن تنفلت من كلّ سلطة ورقابة، حتّى سلطة العظيم التي أوجدها من عدم!

كلّ نفس بشريّة شهدت في يوم من الأيام بالوحدانية لله، وأقرّت بربوبيته،
ثم لمّا جاءت إلى الدنيا أخلفت موعدها، ونقضت عهدها،

التوحيد غريزة بشريّة!

هذه النفس الضعيفة تقرّ بينها وبين نفسها أن قوة أكبر منها تُسيّر هذا الكون وتتحكم فيه،
ولكنّ هؤلاء المرضى الذين لم ترضهم أقدارهم،
اختاروا زَيَّ الإلحاد ليظهروا بمظهر القويّ الذي لا شيء يُسيّره حتى الشرك بحد ذاته، إقرار بغريزة التوحيد لله!
ولكنّها غريزة مريضة وضالة،
فالذين عبدوا الأصنام عبدوها إشباعاً لحاجة الإنسان ليعبد قوياً، ولكنّهم ضلّوا الطريق، وأخطأوا القوي!
والذين كانوا يرمون فتاة حسناء في النيل إذا طاف،
إنّما كانوا يسترحمون قوياً يعرفون أنه حرّك كلّ هذا،
ولكنهم بدل أن يستعطفوا المسبب ذهبوا إلى السبب!

الدّرس السابع :

يُظهر من كل ما سبق أن الله خلق الأرواح على حِدَة والأجساد على حدَة
فهل يمكننا أنَ نقول أنّه لا يوجد علاقة بين الروح والجسد ؟!
والجواب: لا

هناك علاقة بين الروح والجسد لا شك، ولكنّها علاقة على مستوى عالٍ من التعقيد!
وتختلف هذه العَلاقة باختلاف المرحلة التي يمر بها الإنسان، ففي عالم الذر لا يوجد علاقةٍ بينِ الروح والجسد، ذلك أن الجسد ليس موجوداً أصلاً،
فالحديث عن علاقة بين أمرين أحدهما في عالم العدم يتنافى مع المنطق!

أما العلاقة بينِ الجسد والروح في عالم الدنيا موجودة، ونعرفها جميعا، ونشعر بها في حياتنا اليومية!
فالعذاب والنعيم في الدنيا على الجسد والروح له تبع، فعندما نكون في جو لطيف، وطعام طيب، وأحبة يحفّوننا، إن الذي يتمتع هو الجسد، ولكنّ الروح تكون في هناءة لأنها تبع للجسد!
والعكس صحيح فلو أوثقنا إنساناً بالحبال وأِلقيناه على رمل الصحراء الملتهب، نحن في هذا نعذّب جسده، ولكنّ روحه في كدر وغمّ لما بين الجسد والروح من علاقة!

أما العلاقة بين الجسد والروح في عالم البرزخ بعد الموت، فقائمة ولكنّها على عكس ما في الدنيا:
فالعذاب والنعيم على الروح والجسد له تبع!
وأما في الآخرة، فالعلاقة بين الجسد والروح بالتساوي سواءً بسواء!
والله أعلم وأحكم.

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

كان عَدي بن حاتم الطائيّ على النّصرانيّة،
ووفد على النبيّ ﷺ وفي رقبته صليب من فضة،
فسمعه يقرأ:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾

فقال له: لسنا نعبدهم!
فقال له النبيّ ﷺ: أليسوا يجعلون لكم الحلال حراماً، والحرام حلالاً فتطيعوهم؟!
فقال عديّ: بلى!
فقال النبيّ ﷺ: فتلك عبادتهم!

نصّ قرآنيّ يوسّع دائرة الشرك !

وتفسير نبويّ يخبرنا أن الصورة النمطيّة التي نعرفها عن الشّرك وهي اتخاذ الأوائل أصناما آلهة يفردونها بالعبادة والدّعاء ليست إلا ضرباً من ضروب الشرك لا الشرك كلّه !

والنّص على اقتضابه واسع الدلالة رحب المعنى،
وفيه عدة دروس تُستخلص:

الدّرس الأول :
نحن نعرف الرّجال بالحق ولا نعرف الحقّ بالرجال!
فالطريق ليس صائباً لأن من نحبه مشى فيه،
وإنما صواب الطريق موافقته للشريعة!

الدّرس الثاني :
الإسلام لا يقبل شراكة أحد في التّشريع !
وعندما أرسل نبيّه الخاتم، أرسله بدين يُنظّم أمور الدّنيا لأجل صلاح الآخرة،
فالقرآن دستور عمل لا آيات تُقرأ على الأموات، أو لتحصيل البركة، أو لختمة يتيمة في رمضان
إنه نظام شامل يطال كل مناحي المجتمع!
نظام سياسي: يحدد صلاحيات الحاكم، وطرق الإتيان به لسدة الحكم، وطرق خلعه، كذلك
ينظّم العلاقة بين الرعية وحاكمها، وينظم علاقة الأمة المسلمة بغيرها من الأمم، ويرسم هامش تعاملها لأنه يعرف أن المسلمين لا يعيشون وحدهم على جزيرة مهجورة!
نظام اجتماعي: ينظم الأسرة، وعلاقة الجيران،

وحق الطريق، وحقوق الناس على بعضها!
نظام اقتصاديّ: يحرم الربا، ويحل التجارة، ويحدد المواريث، وله حكم في انتقال الأموال، ويبين حق الحاكم في بيت المال وحق الرعية كذلك!
نظام عقوبات: يأمر بالعفو أولاً، ويحض على مكارم الأخلاق، يسد سبل وقوع الناس في الحرام، ثم بعد ذلك يقطع ويرجم ويجلد، دين إنزال العقوبة بالفرد المخطىء لإصلاح المجتمع!
ولم يقم مجتمع بشري من آدم عليه السلام لقيام الساعة لم يكن له نظام عقوبات!

الدّرس الثالث:

إذا أحلّ القانون حراماً يبقى حراماً!

وإذا حرّم حلالا يبقى حلالا!
لا شراكة في التشريع، ومن أخذ بالقانون حقاً ليس له بالشرع جاء يوم القيامة سارقا!

الدرس الرابع:

يجب أن لا تقع بما وقع به أهل الكتاب!
الحرام ما قالته الشريعة، لا ما قاله الشيخ!
والحلال ما حرمته الشريعة، لا ما حرمه الشيخ!
احترام العلماء واجب، ولكن اتباعهم على ضلالتهم، لا يعفي أحد من وزر الاتباع!

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾

عجيبٌ أمرُ هذا الدِّين عندما تقسو عليه قلوب الرّجال

يُلينُ الله له قلوب الجبال !

عندما تُصبح القلوب كالحجارة أو أشدّ قسوة،

يجعلُ الله الحجارة كالقلوب أو أشدّ رحمـــة !

فتية الكهف،

والرّاهب في قصة أصحاب الأخدود،

والنبيّ ﷺ وصاحبه في الهجـــرة،

التجأوا إلى الكهوف!

عندما يخذل الناس هذا الدين يحضنه الصّخر ويأويه!

وحيثما كان دينُ الإنسان فهناك وطنه !

لو كان الوطن أغلى من الدين؛ لترك فتية الكهف دينهم وبقوا في مدينتهم!

ولو كان الوطن أغلى من الدين،

مــا تــرك النبي ﷺ مكــة!

ولكنه وقف على مشارفها مودّعًا يوم الهجرة والدموع في عينيه وقال لها :

"والله إنك لأحب بلاد الله إليّ ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت"

مـــــا أخرجــوه إلا لهـــذا الدين الذي جـــاء بـــه، وقد عرضوا عليه الملك، والرياسة، والمال، والنساء!
فقال لعمه: والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه!
فضاقت قلوب الرجال على الذي كان صادقهم الأمين واتسع له غار ثور!

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

أبلغ قصة قصيرة في التاريخ،

براعة السّرد، وسحر الإيجاز!

قصة من هول أحداثها على اللغة كلّها أن تستنفر لتكتبها:

سماء تمطر بلا كلل،

وأرض تنبع بلا ملل،

سفينة بُنيت في صحراء،

ثم تطفو في موج كالجبال حيث لا شيء إلا الماء،

تحمل في بطنها مستقبل هذا العالم:

القلة المؤمنة، ومن كل زوجين اثنين!

أُناس يغرقون، وآخرون ينجون،

وكوكب بأسره يغتسل مما أحدثه على ظهره ساكنوه،

كل هذا لو قيل بإطناب مفرط ما كان عيباً!

ولكنّه القرآن!

هكذا براعة القصّ بما لا يدع مجالاً للشك أنّه الله!

"قيل": هكذا بالفعل الماضي المبنيّ للمجهول

رغم أنّه موقف عزة وانتصار!

وحُقّ لمن كان بهذه القدرة والقوة أن يشير لنفسه في

معرض السرد
ولكنّه اللّه !
كل هذا الحـــدث الجلل،
كل هذا الانتقام الصارخ،
ولا يشير لنفسه!
الأمر عنده كاف ونون،
بكُنْ يغرق كوكب عن آخره، وبكُنْ يجف !

"وقضيَ الأمرُ"
بـراعـة الإيجــاز مــرة أخــرى،
وإلا فالأمر يحتاج لإسهاب الغالب !
التفاصيل التي يلتفتُ إليها المنتصرون حين يقصّون أخبار نصرهم،
لا تدخل في حساب اللّه !
لا يحتاج لأن يروي تفاصيل الغرق ليخبر بقواه،
إنّه خطاب قرآني يترفع عن المُثلة رغم أنهم يستحقون!
ولكنّه سبحانه يريد أن يعلّمنا أن نسير نحو الهدف،
أما أولئك الذين يعترضون الطريق، فمجرد عوائق
علينا أن ننحيهم ونكمل المسير!

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾

كما قال: "كُتبَ عليكم الصّيام"

قال: "كُتِبَ عليكم القتال" !

الجهاد إذاً عبادة كالصّيام والصّلاة !

وكما أنّ الصلاة والصّيام لا يُقبَلان إلا إذا أُدّيا بالطريقة التي أمر بها الشرع،

فالجهاد كذلك !

وكما لو أن رجلاً صلى الظهر خمس ركعات متذرّعاً بحب الله ورسوله، قلنا له صلاتك مردودة عليك، فإن حب الله أن تعبده بالطريقة التي أخبر بها نبيه!

ولو أن شخصاً صام رمضان أربعين يوماً، لقلنا له إن الله غني عنك وعن عبادتك

وهكذا كل عبادة تؤدى..

والجهاد كما سبق عبادة!

ومن جاهد لهذا الدّين بغير ما جاء به هذا الدين، فجهاده مردود عليه!

وكما أن الله لا يقبل ركعة خامسة في صلاة الظهر، ولا يثيب عليها بل يُعاقب!

كذلك كل دم حرام يُسفك باسم الجهاد هو دم حرام،
مهما كانت راية المجاهد!
ولأن الجهاد يتعلق بدم الناسِ وأموالهم وأعراضهم،
كان من أكثر العبادات حاجةً للتعلم والتفقه قبل
الشروع به!
فالجهاد عن جهل يحوّل المجاهدين إلى سفاحين
وقُطّاع طرق!
لأنهم سيستمدون أحكامهم من اجتهاداتهم، ومن
تقليد أعدائهم صاعاً بصاعٍ!
ولم يكن الإسلام يوماً بحاجة لمن يملي عليه ماذا
يفعل أو كيف؟!

والوسائل الفاسدة لا تؤدي إلى الغايات النبيلة!

إن ما نراه اليوم من حال الجهاد يندى له الجبين!
كنا قبل أن يبدأ "بعض الجهاد الحديث" نخاف على
المسلمين من غير المسلمين،
اليوم صرنا نخاف على الإسلام والمسلمين من
المسلمين أنفسهم،
أو ممــن يدّعــون أنهــم كذلك!
نحن نحــب الله ورسولــه مثلكــم،
ونريد الإسلام كما تريدونه بلِ أكثر،
ولكنكم تقدمون أنفسكم بديلاً مجنوناً، وسفاحاً
لأنظمة مستبدة وسفاحة، ونحن لا نريد أن نستبدل
طاغية أجرد بطاغية ملتحٍ!

الظلم دينه واحد، مهما كانت هوية الظالم!
ولا نريد أن نستبدل يد الجلاد الفاجر،ة بيد جلاد متوضئة !

نحن ضد الجلاد لأي دين انتمى!

ونحن لا نكذبكم إذ تقولون أن ما تقومون به يُسمى جهاداً،
ولكننا نسأل أهو جهاد للإسلام أمٍ عليه؟!
لأننا نؤمن أن الرب الذي أرسل نبياً كان يوصي جيشه بأن لا يقطعوا شجرة، ولا يهدموا صومة، ولا يُروّعوا آمنا، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم،
يستحيل أن يقبل بما تقومون به!

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

ارتبطتْ حياةُ يوسف عليه السّلام بالقمصان،
قميصٌ استُخدم كذبةً،
وقميصٌ استخدم دليل براءة،
وقميصٌ استخدم دواءً!

فأما الكذبة فحين ألقاه إخوته في الجب ووضعوا على قميصه دم شاة، وجاؤوا بالقميص إلى يعقوب عليه السلام ليقنعوه أن الذئب أكله، ولأنه لا جريمة كاملة، نسوا أن يمزّقوا القميص، وفاتهم أن الذئب محال أن يخلع القميص عن يوسف عليه السلام ثم يفترسه !

وأما دليل البراءة، فحين هرب يوسف عليه السلام من زليخة، جذبته ومزّقت قميصه من الخلف، ولما حار العزيز في تحديد الجاني إن كان يوسف أم زليخة، أنطق الله طفلاً رضيعاً من أقرباء زليخة، وطلب منهم أن ينظروا إلى القميص فإن كان ممزقاً من الأمام فيوسف قد هجم على زليخة وكانت تبعده عنها، وإن كان ممزقا من الخلف فقد كان هارباً منها وهي تشدّه إليها ، فلما نظر إلى القميص عرف براءة يوسف !

وأما الدواء فحين عاد أبناء يعقوب عليه السلام من مصر دون أخيهم بنيامين، بعد أن دسّ له يوسف عليه السلام الصواع في رحله ليستبقيه عنده، أخذ يعقوب عليه السلام، يبكي حتى أصيب بالعمى، فأرسل يوسف قميصه إلى أبيه، فلما وضعه على وجهه استعاد بصره بأمر الله

هذه قصص ثلاثة قمصان!

وفي هذه الآية قصّة قميص رابع !
لم يكن قميص يوسف وإنما قميص جده اسحاق عليهما السلام ولكن ليوسف معه قصة قديمة !
كان يوسف يتيم الأم فقد ماتتْ أمه راحيل وهي تضع أخاه الصغير بنيامين، وقد أراد الله أن يعوّضه يتم الأم فقذف حبّه في قلب عمته فائقة التي لم تكن تطيق فراقه تماماً كما كان لا يطيق يعقوب !
وقد عمدتْ إلى الحيلة لتستأثر به !
كان عند فائقة قميص أبيها اسحاق، وكان يوسف في زيارتها، ولما حان وقت عودته وهو ابن سنوات ألبسته القميص تحت ثيابه،
ولما أعادته إلى أبيه، وكانت جارة لهم، أخبرت القوم أنها فقدت قميص إسحاق،
فأخذوا يبحثون عن القميص،

وكان من عرف الكنعانيين وقتذاك أن السارق إذا سرق وقُبض عليه يصبح رقيقاً عند صاحب الشيء المسروق لمدة سنتين !

فلما وجدوا القميص تحت ثياب يوسف وأصرّت فائقة على تنفيذ القصاص الذي دبّرته وأبقت يوسف عندها عامين تحنو عليه وترعاه وهي جارة أبيه يعقوب!

وهذا هو سبب قول إخوته: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل !

فما الدروس المستفادة من الآية؟

الدّرس الأوّل :

الإنسانُ لا يرى الجذع في عينه ولكنه يرى القشّة في عيون الآخرين،

كانوا رجالاً، وتآمروا لقتل أخيهم الصغير!

ثم حال بينهم وبينه أخوه، وأصرّ إن كانوا فاعلين أن يبعدوه بدل أن يقتلوه!

فاستبدلوا خطة القتل بإلقائه في الجُب ليجده السّيارة ويأخذوه بعيداً،

نسوا تآمر الرجل لقتل طفل،

نسوا إلقاءه في الجب،

نسوا كذبهم على أبيهم،

نسوا الحزن الذي جرّعوه إياه سنوات طويلة،

وبقوا يتذكرون ذنباً ليوسف وهو صغير، رغم أنّه لم يكن له فيه يد!

هكذا هم النّاس على مرّ العصور، ذنبهم مغفور مهما كان كبيراً، وذنبك عظيم مهما كان بسيطاً، فاعرف نفسك ولا تنتظر منهم الكثير!

الدّرس الثاني:

فأسرّها يوســف في نفســه!

قالت العرب قديماً: سيّد قومه المتغابي!

لكي تعيش لا بدّ من التطنيش!

إذا أردت أن تواجه الآخرين بكل ما تعرفه عنهم فلن يبقَ بجانبك أحد!

تجاهل وتغافل ومرر وليس في هذا نفاق

ولكنّــه أدب الأنبيــاء!

يوسف يسرّها في نفسه

ومحمد ﷺ يقول: إننا لنبُشُّ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم، أُدرسْ الموقف جيداً وقيّمه،

أحياناً لا بـــد من المواجهـــة،

وأكثر الأحيان لا بد من تمثيل دور الغافل،

على الحياة أن تستمر وبدون التجاهل لن تستمر أحياناً!

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

هل تساءل أحدكم لماذا خلق الله حواء من ضلع آدم عليه السلام، وكان قادراً على أن يخلقها من تراب مستقل كما خلق آدم؟!

ذلك أن أصل الخلقة تبقى في الكائن وإن اتخذ بعد ذلك شكلاً آخر،

فالملائكة مفطورة على الطاعة ولو كان عندها القدرة على المعصية، ما عصى منها إلا قليل، ذلك أن أصل النور الخير.

في حين أن الجن لهم القدرة على الطاعة والمعصية، فأغلب الجن عصاة لأن أغلب النار الشر وما آمن منهم إلا قليل بمقدار ما نستفيد من النار!

لهذا السبب بالضبط، خلق الله حواء من ضلع آدم، لتبقى أصل الخلقة في الطبع،

لتبقى حواء تشعر أنها جزء من آدم، ويبقى آدم يشعر أن حواء قطعة منه!

إنه إتقان الخالق، والطريقة الحكيمة لانجذاب الرجل للمرأة، والمرأة للرجل من أجل إعمار الأرض التي خلقت لهما!

وانظر دقة التعبير :"لتسكنوا إليها"

اللام للتعليل: أي أنِ سبب خلقة المرأة من ضلع الرجل أن يسكن إليها، وسَكنها إليه مفهوم من السياق ضمناً،

ولم يقل لتسكنوا معها،

فالزواج أكثر من شراكة في البيت،

والزوجان يجمعهما أكثر من سقف،

وأبعد من سرير!

"لتسكنوا إليها"،

أي لتجعلوهنّ بيوتاً داخل البيوتِ، ومنازل داخل المنازل، فكما يأوي الرجل إلى بيته طلباً للستر، يأوي إلى زوجته، وكما يأوي الرجل إلى بيته طلباً للراحة، يأوي إلى زوجته، عندما خلق الله حواء من ضلع آدم جعلها في أصل الخلق قطعة منه، والفطرة تقتضي أن يعاملها على هذا الأساس، على أنها قطعة منه!

يحافظ عليها كما يحافظ على عينيه اللتين لن تستقيم حياته دونهما، وهكذا لن تستقيم حياة الرجل دون امرأة! وبالمقابل حين خلقها منه، فلأجل أن تستعذب ميلها وحاجتها إليه، كالغريب يحن لوطنه، كاليتيم يحن لأبيه،

هكذا أبدع سبحانه هذه الطريقة الحكيمة التي تكفل استمرار الخليقة بطريقة يستعذب فيها كلّ من الرجل والمرأة ما يقوم به:

الرجل حين يحبّ هذه القطعة الرقيقة منه،

والمرأة حين تحبّ هذا الكل الذي تنتمي إليه!

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾

الآية في إبراهيم عليه السّلام بعد أن قام بتحطيم
الأصنام التي عكف قومه على عبادتها
وقصة إبراهيم أشهر من أن تُسرد مرّة أخرى!
ولكن وقفتنا معها الآن لغويّة بحتة،
وبالتحديد مع الفعل "حرّق"
فلماذا جاء النّص القرآني على لسان قوم إبراهيم ب
" حرّقوه " ولم يأتِ ب " أحرقوه "
ألا تؤدي الكلمتان الدلالة نفسها؟
الجواب: لا !
أجمع اللغويون بلا خلاف على قاعدة مهمّة هي :
كلّ خلاف في المبنى يقتضي بالضرورة خلافاً في
المعنى !
فلا يوجد كلمة تؤدي ذات المعنى حرفياً التي تؤديها
كلمة أخرى وإن كنا نظن أنها كلمات مترادفة !
وإنما كان الترادف في اللغة لتقريب المعاني
وتحقيق الأفهام، ولكن من حيث الدلالة لا يوجد كلمتان
تؤديان الدلالة ذاتها !
فما المعنى المغاير في " حرّقوه " عن " أحرقوه "
فعل " أحرق " الغاية منه فعل الحرق وهو إيقاد النار
في الشيء لإفنائه أو إتلافه،

فعل " حرّق " الغاية منه إذلال الشيء المحرّق وما النار إلا وسيلة !

وهذا هو بالضبط هدف قوم إبراهيم : إذلاله !

فلو أرادوا قتله فقط لما تجشّموا عناء جمع كل هذا الحطب!

فقد جمعوا الحطب في واد سحيق،

وأنفقوا أياماً يجمعونه، صغيرهم وكبيرهم، ذكرانهم وإناثهم..

حتى أن المُفسر المسدي ذكر أنّ المرأة في قوم إبراهيم كانت إذا مرضت نذرت إن شُفيت أن تجمع حطباً في الوادي المعد ل " تحريق " إبراهيم،

ومن شدة النار التي أحدثها كل هذا الحطب أنهم قذفوا إبراهيم بالمنجنيق ليستقر فيها لاستحالة أن يحملوه ويلقوه فيها!

وهذا المعنى "التحريق" المراد به الإذلال، ورد في آية أخرى من القرآن الكريم تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن التّحريق يحمل في طياته معنى الإذلال وليس مجرد حرق الشيء وإفنائه

فبعد أن رجع موسى عليه السلام من ميقات ربه، ووجد بني إسرائيل عاكفين على عبادة العجل الذي صنعه لهم السامريّ من الحليّ والقلائد التي كانت مع نسوة بني إسرائيل قال له :

﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ﴾

الفعل في الآية "حرّق" وليس "أحرق "
كان يكفي موسى أن يُحطّم هذا العجل المعبود وكان هذا كافياً وقد فعله النبي ﷺ بأصنام قريش يوم فتح مكة، ولكنّه استخدم "التحريق" ليري بني إسرائيل ذلة هذا المعبود،
فموسى بالضرورة أخبر قومه أن الله عزيز، وقد أراد بالتحريق أن يريهم ذلّة هذا المعبود الذي جعلوه عزيزا!
فالعجل نهاية المطاف جماد، ولكنّ التحريق فعله موسى تبعاً للقاعدة: الجزاء من جنس العمل فلأنه جُعل عزيزاً مكرّماً معبوداً، أراد أن يريهم ذلّته!

في مواقع التواصل
إن لم يكن لكَ
حسنةٌ جارية
فعلى الأقل
لا تترك سيئة جارية
تموتُ أنتَ وتبقى هي !

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ﴾

هذه الآيات من أعجب آيات القرآن الكريم مبنى ومعنى، والقرآن كلّه عجيب، سحر لغويّ في سبك العبارة، وفرادة في المعنى!

وكيف لا يكون كذلك؟ وبيان بعض النّاس يأخذ بالألباب كما قال النبيّ ﷺ عندما سمع كلام الزبرقان بن عدي يُدافع عن نفسه: " إنّ من البيان لسحراً " !

فإن كان هذا بيان الناس، فكيف ببيان ربّ الناس !

والسّامريّ هذا تعددت فيه الأقوال، وتوسّعت فيه التفاسير، تلاقت عليه تارة، واختلفت فيه تارة أخرى..

والذي أميل إليه بعد قراءات كثيرة عنه هو التالي :

السّامريّ هو موسى بن ظفر، من قبيلة في بني إسرائيل تُدعى "سامرة" ، فنُسب إلى قبيلته، وضاع اسمه في نسبه، وهذا معروف في النّاس في كل عصر، فأبو بكر أشهر من عبد الله بن أبي قحافة، والجاحظ أشهر من

عمرو بن محبوب، والمتنبي أشهر من عليّ بن الحسين، وكذلك الأعشى، والشنفرى، والأخطل وأبي تمام!

كان قريباً في السّن من موسى عليه السلام، فقد وُلد في سنوات الذبح التي كان فيها فرعون يذبح مواليد بني إسرائيل الذكور ويدع الإناث، بعد أن فسّر له المعبّرون بأن رؤيا النار التي رآها في المنام أنها التهمت قصره، بصبيّ يولد في بني إسرائيل يكون زوال مُلكه على يديه!

وكانت الحوامل في بني إسرائيل إذا جاءهن المخاض يذهبن إلى الجبال والكهوف ويضعن مواليدهن هناك، فإن كانت بنتاً عُدن بها إذ لا خطر على البنات، وإن كان صبياً تركنه هناك مخافة الذبح!

وقد أوكل الله الملائكة إطعام هؤلاء الصبيان ورعايتهم، وكان جبريل هو من تولى رعاية السامريّ!

وهذا هو السبب الذي كان وراء معرفة السامريّ بأثر دعسة فرسة جبريل عليه السلام والقبضة المذكورة في الآيات والتي سيأتي الحديث عنها لاحقاً..

أما لماذا لم تلد أم موسى ابنها في الجبال كحال نساء بني إسرائيل؟

فلأن الله قضى أن يكون هذا الصبيّ في الصّف الأول من المعركة لا في الخطوط الخلفية!

وإذا قضى الله أمراً سبب له الأسباب على ما

جرت به العادة، أو بخلافها لا فرق عنده، فـالأسبـــاب جند من جنود الله يحقق بها أقداره، تجري على الناس ولا تجري عليه سبحانه!

ودارت الأيام، موسى يكبر في قصر فرعون، والسّامري يكبر بعيداً، وعندما حانت لحظة خروج بني إسرائيل من مصر كان السامريّ في قومه،

ولمّا تبعهم فرعون إلى شاطىء البحر، وشقٍ موسى البحر بعصاه، ودخله ببني إسرائيل مجتازا،

تبعهم فرعون يطلبهم بجيشه،

وكان جبريل على فرسه حيزوم بين موسى وفرعون، وقد تحرّك الرمل من أثر دعسة فرس جبريل كأنّ فيه روح، وهذه من بركات جبريل وقد وصفه الله بأكثر من آية بالروح، عرف السامريّ أنٍ هذا جبريل قياساً لماضيه حيث كان يأتيه صغيراً!

ولم يلتفت بنو إسرائيل لهذا لعدم معرفتهم السابقة بهذا الأمر، وهو تفسير قوله تعالى:

﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾

المهم أنّ السامري قبض بيده على هذا التراب الذي كأن فيه روح وأخذه، ثمّ لما عبر موسى ببني إسرائيل أمر الله البحر أن يُطبق على فرعون وجيشه، ثم ذهب موسى لميقات ربه وخلّف أخاه هارون في قومه،

فما كان من الســامريّ إلا أن جمع حليّ نســـاء بني

إسرائيل وذهبهن التي اعتدن أن يستعرنها من نساء مصر وأخذنها في ذلك اليومِ معهن،
وقال لهم هذا ذهب لا يحل لكُنَّ!
فجمع الذهب وأذابه، ثم صنع منه عجلاً، ونثر التراب الذي قبضه من أثر الدعسة فيه، فصار العجل يصدر صوتاً كأنه خوار وفيه حياة!
وأمرهم السامريّ أن يعبدوا العجل ففعل غالبيته، إلا هارون وقلة من بني إسرائيل!
ولما عاد موسى أخذ العجل وحرقه، ونفى السامريّ من بني إسرائيل وأمر الناس بمقاطعته، وهو قوله تعالى ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاس﴾

فما الدروس المستفادة من الآيات؟!

الدّرس الأوّل:

موسى الذي ربّاه فرعون صار نبياً،
وموسى الذي ربّاه جبريل عبد العجل،
ليس مهما كيف تبدأ، المهم كيف تنتهي!

الدّرس الثاني:

قدر الله نافذ لا محالة،
لا يؤخره سبب، ولا يمنعه احتراز، ولا يعيقه سبيل!
فرعون ذبح آلاف الأطفال تحسباً أن يكون أحدهم هو الصبيّ الذي سيكون زوال ملكه على يديه،
ولما ولد هذا الصبيّ ربّاه في قصره!

الدّرس الثالث :

القلوب جند من جنود الله،

يربط عليها ليقضي بها أقداره،
ويرققها لتمضي بها مشيئته!
ربط على قلب أم موسى لتلقيه في النهر،
ورقق قلب آسيا لتحفظه وترعاه،
أخذه من أم، وأعطاه لأم !

الدّرس الرابع :

ليس في تربية جبريل للسامري غرابة أن كان كافراً،
من بيت المؤمن يخرج الكافر كما ابن نوح،
ومن بيت الكافر يخرج النبي كما إبراهيم ابن آزر،
وقد تكون الزوجة كافرة والزوجِ مؤمناً كما زوجتيّ نوح ولوط، وقد بنى الله لآسيا بيتاً في الجنّة وكان زوجها في الأرض يقول: أنا ربكم الأعلى !
ومهما قدّم العباد للعباد، فلن يُقدموا ما قدمه الله للعباد، وها هو يكفر لا يُشكر،
يُشرك به، ولا يُفرد بالتوحيد والعبادة!
وفي الحديثِ " قال الله تعالى: إني والجن والإنس في نبأ عظيم: أَخلقُ ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري؟!
أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء رضي الله عنه

الدّرس الخامس :

الناس ينسون سريعاً،

أنقذهم الله من فرعون،

شقّ لهم البحر، وأهلك عدوهم فلمّا صاروا إلى البر،

عبدوا عجلاً صنعوه!

فإن كان هذا حال الناس مع الله، فكيف حال الناس مع النّاس؟!

اصنع المعروف لأنك أهله، لا لأن الناس أهله!

والعاقل لا ينتظر رد الجميل

ما دام عند الله لا يضيع شيءٌ!

ولكن إن أسدى إليك أحد معروفاً فعجزت عن أن ترده،

يكفي أن لا تنساه!

موجع هو العقوق، وإن كان الله يغضب لكفر النعمة، وعدم تقدير المعروف، وهو غني عن الناس، فالناس أولى بالغضب وهم فقراء لبعضهم بعضًا !

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

هذه الآية في مطلع سورة يوسف،

وسورة يوسف من زاوية أدبية هي سدرة منتهى

القصص القرآني، لجهة الحبكة القصصية التي تبدأ قبل أن تبدأ الشخصيات بأخذ أماكنها في المبنى الحكائي !

أو لجهة تكامل الشخصيات أساسيّها وفرعيّها بحيث يمكن تعميم ميّزاتها على الشخصيات الحكائية في القرآن ككل، أو لجهة تنوع الرواة واختلاف زمان القص، والقصة / السورة لا يكفيها المجلدات الطِوال للإحاطة ببنائها الروائي، سواءً في الحبكة، أو الشخصيات، أو الزمان والمكان، ناهيك عن سحر البلاغة وعمق الدلالة، ولكن الحديث الآن عن الشخصيات!

تنقسم الشخصيات في سورة يوسف كما جُلّ القصص القرآني إلى فرعية ورئيسة،

ولقد اعتدنا حين نمرُّ بالشخصيات القرآنية أن نتعامل معها على أنها شخصيات من لحم ودم، غافلين أن هذه الشخصيات تحمل في طياتها رموزاً ودلالات أبعد من بشريتها!

وفيها أفق أوسع ودلالة أعمق من قفص البشرية التي نسجنها فيه !

فالقرآن حين يحدّثنا عن يوسف إنما يريد أن نفهم الرمز الذي يمثله يوسف !

وهكذا أرى أن كل الشخصيات القرآنية برّها وفاجرها إنما هي مجموعة رموز ودلالات وقيم !

والمقصود بالحديث دوماً ليس الشخصيّة بلحمها ودمها، وإنما برمزها ودلالتها!

فيوسف يرمز إلى العفة، وزليخة ترمز إلى الشهوة !

وهذا بالضبط ما أراد القرآن أن يحدثنا عنه صراع العفة والشهوة !

وهذا ما يفسر أن الله ذكر لنا في القرآن خمسة وعشرين نبياً وهم كما في الصحيح تجاوزوا المئة ألف!

فالذين لم يحدثنا عن شخصياتهم البشرية إنما حدثنا عن رموزهم التي هي بالضرورة موجودة في شخصيات قد حدثنا عنها وهنا يتأتى إعجاز الإيجاز!

وما ينطبق على يوسف / العفة،

وزليخة / الشهوة،

ينسحب على بقية الشخصيات:

فيعقوب/ الأبوة

وأخوة يوسف/ الحسد

وأخناتون/ الحكم والملك

والنسوة/ رفاق السوء

والعزيز شخصية متشعبة الزوج / البطانة

والصبي/ شهادة الحق

وصاحبا السجن/ عامة الناس

لهذا كان إبراهيم هو موسى وكان النمرود هو فرعون!

والطوفان، والضفادع، والجراد، والقمل، والدم،

والعصا، والفيل، والطير الأبابيل، وحمار العزيز، هي جنود الله!

وقارون، زواج المال بالسلطة!

بل وقد تختلف الشخصيات في نوعياتها ولكنها تؤدي الرمز ذاته، فالنملة التي خافت على قومها جيش سليمان أن يحطموهم وهم لا يشعرون، ما هي في رمزيتها إلا الذي جاء من أقصى المدينة يسعى في سورة يس!

﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح﴾

الدرس الأول:

لا تتوقع من الناس أن يكونوا ملائكة،
نبي من أولي العزم يغضب ويلقي الألواح،
لأنه نهاية المطاف إنسان!

الدرس الثاني:

النبلاء يسارعون إلى ترميم ما أحدثوا،
وها هو موسى يأخذ ما ألقى،
إذا أخطأتَ اعتذر
وإذا أفسدتَ أصلِحَ!

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

دأب بعضُ يَلوون أعناق النصوص القرآنيّة لينفوا أُميّة النبيّ ﷺ فتارة يفسّرون " النبيّ الأميّ " نسبة لمكة وهي عند العرب، وفي النصّ القرآنيّ: أمّ القرى وتارة يقولون أنّه لم يكن أمياً، ولكن العرب كانوا كذلك وقد نُسب إلى قومه، وهذا اجتهاد في غير موضعه، ودفاع مذموم عنه ﷺ وكأنّ أُميته منقصة!

لقد نسوا أن الله لا يرسل نبياً فيه عيب يؤثر في دعوته، فضلاً على أن يكون هذا النبيّ هو النبيّ الخاتم !
ولا أحد أعلم بمحمد ﷺ من قـــريش!
فهم عندما كذّبوه، اتهموه أنّه شاعر لأنهم كانوا يعرفون أن الشعر لا يتنافى مع كون المرء أمياً،
فأغلب الشعراء الجاهليين كانوا أُميين يقرضون شعرهم شفاهاً،
والذين كتبوا القصائد وعلقوها على جدار الكعبة على القول الذي يعزو تسمية المعلقات بهذا الاسم إنما كتبها القلة الكاتبة من العرب لا الشعراء أنفسهم!

ولكنهـم لـم يتهمـوه بأنّـه هـو الـذي كتبـه لأنهـم كانـوا يعرفون أنـه لـم يكـن يقرأ ويكتـب، والآية نص صريح فـي أمّيّتـه، ونفـي قاطـع لمعرفتـه بالقـراءة والكتابة، ولكن الذيـن تعصّبوا لـه تعصبًا فـي غيـر موضعـه، خلطـوا بيـن مفهوم الأميـة ومفهـوم الجهــل !

الأميّة نقيض الكتابة والقراءة،

والجهل نقيض العلم،

وقد كان النبي ﷺ أُميّاً ولم يكن جاهلا !

وهـذه الاسـتماتة فـي نفـي الأميّـة عنه جهل برسـالته، فهم حين يشترطون أن من تمام النبوة أن يقرأ ويكتب فكأنهم يعتقدون أن الله بعثه مُدرساً!

ولا أعلم قولاً معتبراً ينفي عنه الأميّة،

إنمـا هـي عواطـف محمـودة، نشـأ عنهـا تفسـير مذمـوم، وتأويل مستغرب ليس إلا!

بل علـى العكـس تمامـاً، فـإنّ محطـات كثيـرة مـن حياتـه ﷺ تثبـت أُميّتـه،

فقـد جـاء فـي صحيـح مسـلم مـن حديـث البـراء عـن صلـح الحديبيـة عندمـا جـاءه سـهيل بـن عمـرو يفاوضـه عـن قريش، وكان ﷺ قـد أمـر صحابتـه أن يكتبـوا بنـود الصلـح،

فلما أمسك سهيل الوثيقة وقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم،

قال لا أعرف هذا وإنما اكتب باسمك اللهم،
فقال النبي ﷺ لعلي اُكتبها كما قال،
ولما قرأ: هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله مع قريش،
قال سهيل: لو شهدنا أنك رسول الله ما قاتلناك،
اكتب هذا ما اتفق عليه محمد بن عبد الله مع سهيل بن عمرو
فقال النبي ﷺ لعلي: امحها
فقال عليّ: والله لا أمحوها!
فقال له النبي ﷺ: أرني مكانها!
فدله علي على الكلمة، فشطبها بنفسه!
ولو كان يقرأ ويكتب لما احتاج أن يدلّه أحد عليها !
وما نُسب للشعبيّ شراحيل بن عامر الكوفيّ من قوله أن النبيّ ﷺ لم يمت حتى قرأ وكتب،
فقول فاسد لا يصح!
ولو سلّمنا جدلاً أنّه يصح،
فهذا حجة عليهم لا لهم!
لأنهم يُسلّمون أنه كان أُمياً بداية،
ولو لم يكن، فما الداعي من ذكر أنه ما مات حتى كتب!

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

لطالما كان القرآن محطّ رحال الدارسين، بآياته ينيخون عقولهم، وبمفرداته يُعملون أفهامهم

منهم الفقيه الذي شغله الحكم الشرعيّ من النّص،

ومنهم المُقرىء الذي شغله صحيح التجويد،

ومنهم النحويّ الذي شغلته الجُمل استنباطاً وقياساً واستدلالاً، ومنهم البلاغي الذي شغله حسن الكناية، وسحر السجع، ورهبة التشبيه، ودقة الاستعارة، ومنهم اللغوي الذي شغلته المفردة تجريداً وزيادة ولهجة،

وكل منهم وجد ضالته!

فهذا القرآن بحر علم لا شواطىء له، به تُبحر العقول حيث لا مراسي إلا بقدر ما يستشف الدارس من النص!

أُثيرت قديماً مسألة مفردات القرآن هل هي عربيّة كلها ؟

هل في القرآن لفظ غير عربيّ؟

ماذا عن لغات غير العرب الذين تأثر بلسانهم العرب وأثروا به، فتلاقح اللغات أمر لا مناص منه مهما بلغت اللغة من الجزالة والمتانة ؟

ظاهر آيات القرآن أن كل مفرداته عربيّة خالصة،

وقد دافع الأوائل بشراسة عن هذه الفكرة،
وقد انقسم الناس في الأمر إلى ثلاثة آراء:
رأيان معتبران ورأي مريض ليس له من علم في الأمر، ولا يقول في النص القرآنيّ إلا ما أشرب من هواه تارة عن حقد، وتارة عن جهل!

الرأي الأوّل: ينفي وقوع غير العربيّ في القرآن جملة وتفصيلا، وهو رأي الشّافعيّ، وابن جرير الطبريّ، وأبي عُبيدة معمر بن المثنى، والقاضي أبو بكر، وابن فارس

وشدد الشّافعيّ النكير على القائل بخلاف هذا!

الرأي الثاني: يرى وقوع غير العربيّ في القرآن وأصحابه جهابذة في اللغة والدين،
يُعتد برأيهم ولا يُشك فيهم مؤلفاتهم واستماتتهم في الدفاع عن هذا الكتاب، تشهد صفاء قلوبهم
منهم ابن هشام والثعالبي والسيوطي،
وهذان الرأيان هما موضع نقاش ويمكن التوفيق بينهما بخلاف القول الثالث المريض الذي سيأتي ذكره.
الصواب أنّه تعصّب في غير مكانه إنكار ورود غير العربيّ في القرآن، فشواهد وقوعه عديدة، لا سبيل لتجاوزها والقفز عليها ومنها :
أباريق، وسجيل، وإستبرق، ودينار، وياقوت، ومسك، وهي ألفاظ فارسيّة
الرقيم، والصراط، والقسطاس، وإبليس، وهي يونانية
جهنم، والملائكة، وأخدود، وهي حبشية

غسّاق، وهي تركية قديمة
مشكـــاة، وهي هنـديـــة
إذًا كيف نجمع بين القولين دون أن يتنافى ذلك مع كثير من الآيات التي لا تنفك تؤكد على عربيّة القرآن؟!
هذه المفردات مُعرّبة،
والمُعرّب في اللغة هو ما كان في الأصل غير عربي، فاستحسنه العرب، وضمّوه إلى لغتهم، وتحدّثوا فيه دهراً قبل نزول القرآن،
فأصبح بهذا المفهوم عربياً خالصاً!
إذ أن العرب حين عرّبوا لم يأخذوا المفردة كما هي ويضموها إلى لغتهم،
بل أجروا عليها تعديلات صرفية، وصوتية، تتناسب مع لسان العرب وأوزانهم في الكلام.

فمن قال ليس في القرآن لفظ غير عربيّ، فقد صدق على اعتبار أن هذه المفردات صارت عربيّة خالصة، وإن كانت بداية ليست كذلك وعندما نزل القرآن واستخدم هذه المفردات استخدمها استخداماً يعرفه العرب وقد استخدموه ردحاً من الزمن قبل نزول القرآن.

ومن قال أن في القرآن لفظ غير عربيّ على اعتبار أصل المفردة وما كانت عليه قبل التعريب فقد صدق

أيضاً، فهذا بحث في جذر الكلمة وأصلها لا تشكيك بعربيّتها، ولا لانتمائها للسان العرب قبل نزول القرآن!

أما القول الثالث المريض

فهو قول القائلين أن العرب لم يعرفوا هذه المفردات،
ولم يستخدموها في سياقاتهم اللغويّة،
وإنما صارت عربيّة لنزول القرآن بها،
حيث استسلم اللسان لسطوة القرآن،
هذا قول ليس فيه حجة،
قائله إما جاهل أو حاقد!
وقريش الذي وصفهم الله ب " قومٌ خَصِمون "
يكثرون الجدل والحجة،
كانوا سيحتجون على عربيّة القرآن بهذه المفردات،
وهذا الذي لم يحدث أبداً، وهم أفصح العرب لساناً،
فيهم أساطين البلغاء، وفطاحل الشعراء!
على العكس تماماً، لقد انصاعوا لسحر بلاغته وعربيّته الخالصة وهم أدرى الناس بالعربيّة
ولم يحدث أن غير قريش احتجت على القرآن بهذه المفردات!
يكفيك من ذلك تميم البليغة، وهذيل السامقة، الذين انصاعوا انصياع قريش للقرآن العربيّ الخالص!

﴿قال آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾

الأصل أن يقول ربنا: لأصلبنّكم على جذوع النخل.
لا أن يقول: في جذوع النخل.
لأن الصلب يتم على ظاهر النخلة لا في باطنها،
فما البلاغة التي تحويها الآية؟
وما فائدة استبدال "في" بدل "على" على دلالة الآية؟
اتفق الكوفيون والبصريون أن حروف الجر تتناوب،
بحيث يمكن أن يحل أحدها مكان الآخر،
وعند الكوفيين أن ميزة حروف الجر التناوب، ولا ضرورة أن يُحدث هذا التناوب إضافة في المعنى!
أما عند البصريين، فالأصل أن يحل كل حرف جر مكانه، وإذا حدث تناوب، فلزيادة في المعنى، وهذا قول سيبويه وهو الصحيح!
كان الصلبُ بوسيلتين :
الأولى أنه ثبّتهم على النخيل بالمسامير حتى دخل شيء من لحمهم في النخيل الذي صُلبوا عليه، والثانية أنه ربطهم بالحبال حتى اختلط لحمهم بجذوع النخل، فصاروا بهذا المعنى فيها لا عليها !

إنها براعة السبك لإيضاح الدلالة،
والدلالـة على وحشيـــة الصـــلب،
فـلم يكتـن مجـــــرد تثبيت عـــابر،
بل طلب صاحبه التمثيل بأجساد السحرة حين صلبهم!
والدّرس الأهم الذي يجب أن نتعلمه من الآية:
أن لا نفقد الأمل بأحد!
فالسحرة الذين جاؤوا لنزال موسى صباحاً،
صُلبوا مساءً ولم يتركوا دين موسى!
وأن لا نفرط الأمل بأحد،
فالذين عبروا مع موسى البحر، ما لبثوا أن عبدوا العجل!
القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقلبها كيف شاء، ويهدي الله لهذا الدين رجالاً ما ظنّ أحد أن يهتدوا!
عمر بن الخطاب الذي كان يذيق المسلمين صنوف العذاب؛ صار فاروق الأمة!
وعلى يديه تهاوت أعظم امبراطوريتين في التاريخ فارس والروم.
وخالد بن الوليد الذي قلب نصر المسلمين هزيمة يوم أحد؛ صار سيف الله المسلول!
وعكرمة الذي أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة؛
استشهد يوم اليرموك وهو قائد ميمنة جيش خالد!
إن هذا الدين لمن صدق، لا لمن سبق!
وإن الإنسان بالصدق ليفوق أهل السبق!

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

سبقَ وتحدثنا أن الكوفيين والبصريين اتفقوا على أنّ حروف الجر تتناوب، أي يحل بعضها مكان بعضها الآخر، وأن الكوفيين قالوا أن التناوب ميزة في حروف الجر، وحلول أحدها مكان الآخر لا يُشترط به إضافة دلالة جديدة على الكلام، بينما يرى البصريون أن التناوب يلزمه زيادة في الدلالة وهو قول سيبويه تحديداً وهو الصواب!

كان من المفترض أن يقول ربنا: ونصرناه على..

لا أن يقول: نصرناه من..

فما الذي أضافه هذا التناوب على المعنى؟

الآية تتحدث عن نوح عليه السلام،

والمعلوم أن هلاك قوم نوح كان غرقاً بعد أن أمره الله بصنع السفينة وأن يحمل عليها من كل زوجين اثنين!

وكلمة النصر تقتضي أن يكون هناك مواجهة،

وهذا ما لم يحدث!

إذا نصرناه هنا بمعنى أنجيناه، والمواجهة إنما كانت بين قومه والماء، وخرج هو ناجيًا معافى،

وإذا كان جند الله "الماء" قد كسب المواجهة،

فإن الماء كان استجابة لدعاء نوح،

فنوح إذاً شريك انتصر بالنتيجة ولكنه بالفعل نجا !
فغيّر الله الخطاب، وبدّل الفعل أنجى، بالفعل نصر،
وبدّل حرف الجر بآخر تاركاً لنا أن نكتشف سحر
الدلالة في النّص القرآنيّ!

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾

هـذا أبلـغ تشبيـه في القـرآن،
والقرآن كلّه أبلـغ من كلّه!
ذلك أن التشبيه في اللغة إنما وُجد لتقريب المعنى،
وتقريب المعنى في حال الشيء المجهـول،
أن يتم تشبيهه بمعلوم!
فيقيس الإنسان ما يعرف على ما لا يعرف،
فيتجلى له المعنى،
ولكنّ الله شبّه مجهولاً بمجهول!
والغاية ليس تعقيد المعنى، وإنما تعمّد إبقاء الأمر مجهولاً، والإنسان يخاف مما لا يعرف!
والقصد من الآية التخويف!
والنص القرآنيّ لا يتعمد الغموض، لأنه في الأصل بيان للناس، ولكن تعمّد جلّ شأنه تعقيد الصورة زيادة في الترهيب،وخطابه جلّ شأنه موازاة بين الترغيب والترهيب. ولما كانت الصورة التي رسمها الناس في أذهانهم للشياطين أنها صورة قبيحة، وأقبح ما في الشيء رأسه؛ وفيه الوجه! لذلك ترك لنا الأمر غامضاً، تركنا نتخيل شجرة مجهولة، تطرح ثمراً شكله مجهول، ولكن قبحه متحقق في النفس!